١٤٠

روايات احلام

سيّدة الرّماد

www.elromancia.com
مرمورية

روايات احلام

سيدة الرماد

قد يتجاوز الواقع أحياناً الحلم، وواقع ايريس أصبح كابوساً بعدما استيقظت صبيحة ليلة حافلة لتجد رسالة غريبة:

«عزيزتي ايريس...

أرجو أن تقبلي هذا المال ليساعدك على الرحيل، واعلمي أنني لا أريد رؤيتك أبداً بعد الآن، فقد عانيت منك ومن كبريائك ما فيه الكفاية...».

كانت هذه آخر إهانة في سلسلة الإهانات التي تلقتها إيريس من المخرج السينمائي المشهور رامزي لونغ، واقسمت أن تجعله يندم، مع أن هذا كان قسماً مستحيل التنفيذ.

لكن ما كان مستحيلاً قد تحقق، فها هو رامزي على عتبة بابها، وحياته في قبضة يدها، وفي مقدورها أن تنفذ انتقامها كما تريد...

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٧٥ ل.س.	قطر ١٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١.٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ١٠ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

١ ـ الزهرة والوحش

كانت الحفلة في أوج انطلاقها والضجة صاخبة.. وتنهدت ايريس هالستون متمنية انتهاءها مع أنها تعرف أن أغلبية ضيوف ابنة عمها لا يشاركونها رأيها.. إنهم نجوم أو مرشحون للنجومية في عالم التمثيل. نظرت إليهم نظرة سخرية لا تناسب فتاة لم تكد تبلغ التاسعة عشرة من عمرها. معظمهم من الشبان، في العقد الثاني أو الثالث، يحتشدون بلهفة في غرفة الاستقبال الكبيرة حتى ظنت أن الغرفة رغم اتساعها ستنفجر بهم.

شقت طريقها بين الجمع محاولة الوصول إلى الشرفة التي بدت لها أهدأ حالاً. وهي في الطريق إليها دنا منها شاب ضاحك وقال مبتسماً ابتسامة عريضة:

ـ لن تستطيعي الابتعاد كثيراً، إيريس حبيبتي.

ردت: «لم أكن أحاول الابتعاد».

لم تكن معجبة ببوني براند أو بحديثه السخيف وبابتسامته. أحست برغبة في ذكر رأيها به ولكنها حافظت على تعقلها.. لقد تعلمت منذ مجيئها للعيش هنا، فن المراوغة التي هي أشدّ تأثيراً من المواجهة.. فنادراً ما يمكن التخلص من أمثاله بالمواجهة.

قالت له: «ألا يمكنك إيجاد ما آكله ونحن هنا؟ أعتقد أنني رأيت بعض قطع الجبن هناك منذ دقائق».

ذهب بكل طواعية يبحث عن قطع الجبن التي نفدت بلا ريب منذ وقت طويل، وتابعت ايريس طريقها إلى الشرفة.. هنا، المكان أهدأ

وأحست بالسرور والراحة لدقائق قليلة وراحت تستمتع بمنظر المدينة الرائع.. كان المكان مرتفعاً جداً بحيث بدت الرؤية خيالية فيها ملايين الأنوار المتلألئة.

تنهدت ايريس مرة أخرى واستندت إلى أحد الأعمدة الرخامية، محاولة تجنب النظر إلى من خرج إلى هنا مثلها. ما دامت تعيش مع غرايس فلن تتمكن من تجنب حضور الحفلات التي تقيمها.. إنما هذا لا يعني أن عليها المشاركة بها.. كل ما تطلبه غرايس هو المساعدة بشكل عام.. ولكنها الآن لا تظن أن أحداً سيفتقدها.. وإن افتقدتها غرايس فستنتج أنها ذهبت إلى النوم.. وهي لن تقلق، فهي هذا المساء مشغولة الفكر بدور تأمل أن تحصل عليه في آخر أفلام رامزي لونغ.

عند خروج بضعة أشخاص إلى الشرفة تساءلت ايريس لماذا يزعج أحد نفسه بإقامة مثل هذه الحفلة المبالغ فيها.. لكن ما الذي يمنع غرايس أن تفعل ما تشاء؟ فعندما تعمل تعيش حياة ناسك، تنهض باكراً وتنام باكراً، وتلتزم روتين عمل صارم.. وهي لا تترك لنفسها العنان إلا بين عمل وعمل. ولكن لهذه الأمسية هدفاً محدداً. فقد قال رامزي لونغ المخرج، إنه آتٍ. وهي مصممة على استخدام سحرها الذي لا يستهان به، إذا كان هذا سيساعدها في الحصول على العقد الذي تتوق إليه.

والواقع أنها تستحق الحصول عليه.. نعم هو ليس الدور الرئيسي لكنه دور آخر ترغب فيه غرايس، دور سيدة عابثة، لئيمة، دور تبرع فيه بموهبة طبيعية لذا تستغرب ايريس تردد رامزي لونغ في منحها الدور.. لم يسبق أن التقت به ولكنها سمعت ما فيه الكفاية عنه بحيث باتت تعرف أنه يعلم بالضبط ما يسعى إليه. والواضح أنه لا يعرف معنى التردد.. وإن كان الأمر هكذا فهذا يعني أنه غير مقتنع بصلاحية غرايس للدور الجديد.. وإن لم تحصل عليه فسيكون العيش معها مستحيلاً في الأسابيع المقبلة.

تابعت ايريس بمزاج متململ، التطلع إلى ليل لندن، متمنية لو أنها غير مضطرة للسكن مع غرايس يوماً إضافياً.. لكن قد تمرّ عدة أشهر قبل

أن تعود أمها من الخارج مع آخر زوج تزوجته وحتى ذاك الحين هي عالقة هنا مع غرايس.

لسوء الحظ أن ايريس لا تجني مالاً كثيراً يخوّلها العيش في شقة مستقلة وعندما طلبت من أمها المساعدة، هزت أمها رأسها وادعت الفقر.. وكان الأمر مشابهاً لما كان يحدث معها في المدرسة.. إذ كانت تضطر للاستغناء عن أشياء تعتبرها الفتيات الأخريات من البديهيات. خلال العطلات المدرسية، كانت تُرسل إلى غرايس أو إلى قريبة بعيدة لأن أمها تختار أن تكون في أماكن بعيدة.

أما والدها الذي يعيش في أميركا مع زوجته الثانية فلم يكن أفضل من أمها.. جعلها عدم اكتراثهما بمسؤولياتهما تجاهها أكثر تصميماً على ألا يكون لها شأن بعالم الفن.. إنها حياة سيئة جداً.. فعدا عن كونها مهنة لا يُعتمد عليها، فإن معظم أصدقاء والديها مطلق أو منفصل، أو يعيشون معاً بلا زواج.

كانت غرايس محظوظة لأن لديها عملاً كثيراً ولهذا لم يؤثر فيها كثيراً طلاقها من زوجها ويا للغرابة! ليس لديها الآن أي عمل، أو كما قالت أي عمل يستحق العناء.. وهذا ما يجعلها قلقة. وكانت ايريس تدعو الله في سرها ألا يضيع رامزي لونغ المزيد من الوقت قبل أن يعطي غرايس ما تسعى إليه.

أدارت ايريس عابسة رأسها الأشقر ناحية آخر الواصلين إلى الشرفة وهو شخص وقف بينها وبين المنظر الذي كانت تحدق إليه.. رفرفت عينيها ونظرت مرة أخرى فوجدت بصرها يلتقي بعينين سوداوين براقتين.. اتسعت عيناها من فرط الذهول حتى باتت لا تعي شيئاً آخر، غير الشعور بأنها جُرحت ودمرت بقوة شيء ديناميكي.. ضمت أصابعها المتوترة بخوف فيما عاد تفكيرها المصدوم إلى الوراء رافضاً التراجع.

حدث هذا منذ أسبوع. كانت قد تأخرت عن عملها.. وأملت أن يتأخر صاحب عملها كلاري رانر الذي أرسلت عن طريق الوكالة التي

تعمل فيها لتطبع له آخر كتبه على أساس عمل مؤقت.. كان كلاري أستاذاً جامعياً في النهار وكاتباً في الليل في عطلة الأسبوع.. وهذا عمل يناسب ايريس كثيراً لأنه يمكنها أن تتجنب معظم أصدقاء غرايس، ولكن إن لم تصل إلى منزل كلاري في الوقت المحدد فسيثير مشكلة.

ازداد اهتياج ايريس لأنها في عجالتها أخطأت الزر المطلوب في المصعد، وبدل أن يتوقف في الطابق الأرضي نقلها إلى الطابق السفلي حيث يوقف سكان البناء سياراتهم. وازداد سخطها عندما وقع منها الملف الذي تحمله تحت ذراعها ودخل تحت سيارة.. شعرت بارتباك شديد فلم ترَ الرجل الذي ترجل للتو من سيارته ودنا منها بينما كان الكاراج فارغاً لا أحد فيه.

حاولت التقاط الملف دون أن تتوقف.. لكنها اصطدمت به مباشرة، وأحست بتأثير جسده الطويل النحيل يسري في أوصالها.

تلاقت عيونهما في العتمة.. كانت مدة تلامسهما قصيرة وعندما تراجع رأسها بحدة سارع الرجل يسند أطرافها المترنحة ولكن تأثير لمسته كان كهربائياً.. تبادلا نظرات غريبة وأحست ايريس بارتباك بسبب إحساس غريب استحوذ عليها كلياً.. وهو أيضاً بدا لا يعرف ماذا يفعل مثلها تماماً.. وكقطبين انجذبا فجأة لبعضهما بعضاً، تلاشت المسافة بينهما، إذ أطبقت ذراعاه حولها بعناق بارد غير مريح، وفجأة.. تغير كل شيء إلى نار جارفة، نار أحست بها تسري في أوصالها كلها بقوة.

مع ذلك، كان خوفها الأساسي مما يحدث كبيراً بحيث لعب دور الكابح المؤثر.. حاولت بذعر الانسحاب من بين ذراعيه المطبقتين عليها.. أحست بجسدها يتصلب، ولم تعد لديها رغبة في أن تكون سجينة العالم الغريب العنيف الذي بدا أنه يجرها إليه. هذا غير حقيقي.. إنه كابوس.. تمكنت بجهد يائس من تحرير نفسها ثم جاء صوته فأقنعها بأنها لم تكن تحلم.

كان ذلك الانطباع واقعياً بحيث خرجت مخيلتها عن سيطرتها..

وبدأت تعتقد أنه كان يرمي إلى أكثر من مجرد العناق.. فأطلقت يدها بقوة ولدها اليأس وأصابت جانب وجهه البني القاسي.

تركها شاتماً.. لكن عندما تراجع إلى الوراء، بدا وكأنه فقد توازنه.. وكان آخر ما لمحته منه منظره وهو يتهاوى بقوة فوق سيارة.. لكنها لم تتردد أكثر من ثانية.. إذ جعلتها ردة فعلها اللاواعية تعدو، فركضت لا تلوي على شيء.. وفيما كانت تركض قالت لنفسها إنها لم تضربه بعنف يبرّر صيحة الألم الشديد.

ظلت طوال الأسبوع تتمنى عدم اللقاء به مرة أخرى.. ولكنها جعلت من هذه الأمنية عذراً للتفكير فيه باستمرار.. أعادها إلى حاضرها صوت ارتطام كوبها بالأرض الرخامية بين قدميها، وانحنت بسرعة تتنشق الهواء بقوة.. ولكن قبل أن تصل يدها إلى الكوب أمسكها الرجل الذي وقف بينها وبين الأنوار، الرجل الذي عانقها في الكاراج. وأرجعها إلى الخلف وقال: «اسمحي لي».

سرعان ما أبعد بقدمه الزجاج المكسور عن العيون إلى حيث لا يشكل خطراً على أحد.. لاحظت ارتفاع حاجبه فتمتمت، مصدومة بشيء من الشك.

ـ لست في العادة متهورة هكذا.

رفع رأسه ونظر إليها ببرود.. لم يسبق أن رأت هذا الرجل وهي واثقة من هذا.. لكنه يثير فيها شعوراً بأنها وسط حلم مزعج.

ـ من الأفضل أن تنتبهي في المستقبل، فالعجلة أمر غير جيد لشابة في مثل سنك.

لم يفعل السخط الغاضب الذي اجتاحها شيئاً للتخفيف من ارتباكها وهمّت بالدفاع عن نفسها أمام الاعتراض الذي ارتسم على وجهه الوسيم ولكنها عادت فترددت. أليس من الأفضل أن تتركه يعتقد بأنهما لم يلتقيا من ذي قبل؟ ولكنها الآن غير متأكدة من أنهما التقيا فعلاً.. شعرت للحظة بأنها ستجن.. يجب ألا تبدو كالحمقاء بانهامه بما هو غير مذنب به

ربما؟

لكن هذا الرأس الأسود الشعر يبدو مألوفاً. كانت العينان الرماديتان الباردتان تضيقان، وتنظران إلى وجهها الملتهب. أسرعت لإظهار عدم اكترائها بالقول له:

ـ كثيراً ما تقع الأكواب عندما يجفل المرء..

ـ هذا ما أعتقده.. وهذا ما يحصل.

ونظر إلى بقايا الكوب الزجاجي.

سحبت نفساً قوياً لتمنع رداً عنيفاً.. كان صوته عميقاً ساحراً.. تمنت لو انتظرت تلك الليلة حتى يتكلم الرجل قبل أن يصبح متألماً. قد يصعب أحياناً نسيان الصوت فهو يساعد في التعرف إلى صاحبه.. راحت أعصابها تشتد لمجرد التفكير في ما حدث.. تأملت وجهه ثم راحت تتساءل عن عمره.. بدا في الثلاثينات وتصرفاته تدل على أنه رجل خبر الحياة جيداً.

سرعان ما أشاحت نظرتها الفضولية، وتكلمت بسرعة لتغطي ارتباكها مقررة أن تهاجمه.

ـ إذا لم يعجبك المكان هنا فلست مضطراً للبقاء، أظنك متطفلاً على المكان على أي حال؟

رفع يده ليعيد خصلة من شعره الأسود إلى الوراء.. فلاحظت وبا للهول أن معصمه مضمد داخل كم قميصه..

سأل: ما الذي جعلك تظنين أنني غير مدعو؟

ـ لأنني أعرف معظم أصدقاء غرايس، ولا أعتقد أنني رأيتك من قبل.

ـ قد أكون صديقاً جديداً.

ـ أمر سهل جداً.. ولكن لو كنت صديقاً جديداً لما كنت الآن معي هنا.. سيد..؟

مال إليها متجاهلاً ببرود محاولتها للتعرف إلى اسمه:

ـ أؤكد لك يا آنسة أنني أعرف الآنسة ويللي منذ وقت طويل. وإن لم

أكن معها الآن فالسبب أنني لمحت سيدة شابة أكثر جاذبية هنا على الشرفة.

تسارعت نبضات ايريس، ولم تدر أكان هذا غضباً أم خوفاً. إنه يغازلها ولا يبدو أنه صادق.. بدا ساخراً وكأنه اكتشف ملاكاً قدمه من طين.. حسناً.. وماذا بينهما؟ ففيما يجذبها هذا الغريب بشكل غامض كانت كل حواسها تحذرها منه.

قال ببرود: لا تقولي إن أحداً لم يسبق أن قال لك إنك جذابة؟

تعرف أنها مقبولة للنظر، لكنها لا تعتبر نفسها جميلة.. كانت مرآتها تنبئها بأن لها شعراً ذهبياً كثيفاً بلون الصحراء، وأن لوجهها قسمات ناعمة، وأن عينيها زرقاوان طويلتا الأهداب.. وكانت تقول لها أيضاً إنها رشيقة نحيلة، ولكنها لا تملك إغراءً محدداً. وكانت تشك في أنها جذابة.. فصديقان أو ثلاثة من أصدقاء غرايس ألمحوا إلى أنهم يرغبون في علاقة معها، ولكنها لم تفكر قط في الموافقة على ما يريدون. عندما اتضح لها أن صبر مرافقها قد نفد بسبب طول صمتها ردت بشيء من الحدة:

ـ إذا كنت تعرف قليلاً عن دائرة غرايس، فهذا يعني أنك تعرف أن مديحاً كهذا لا يساوي قرشين. ونادراً ما أحمله على محمل الجد.

في هذه المرة رفع حاجبيه متسلياً:

ـ أراك تلمحين إلى أن طريقة حياة غرايس مصطنعة.

تمنت لو تستطيع النظر إلى وجهه وهي تتحداه:

ـ أوليست كذلك؟ لا شك أن التمثيل اصطناعي، إبداع لا وجود له حقاً.. وكأن الممثل يعيش في عالم الأحلام.

وافقها الرأي بجفاء: وهو عالم يتشارك فيه معظم الفنانين.. لكن أين سنكون بدونهم؟ من الأفضل أحياناً إعطاء الناس القليل من الخيال الذي لا يعني بالضرورة جرعة مبالغ فيها من الإغواء والإباحية.

لم يكن إحساسها بالحشمة يعني أنها مقتنعة كلياً أو أنها ستعتذر!

لكنها أدركت أن ابتسامته توحي بأنه يهدىء من روع طفلة مذعورة..
قالت: ربما أنت على صواب.. والآن هلاّ عذرتني..
ارتدت تريد الابتعاد ولكن عندما حاولت المرور أمسك ذراعها:
ـ تعالي لتناول العشاء معي.. أريد أن أتحدث إليك.
ـ ماذا؟ الآن؟
جعلتها الدهشة غير مترددة فرفعت عينيها إلى عينيه.. مرة أخرى علقت في ذلك الفخ الغريب من الأحاسيس.. وشعّ بينهما توتر قلق.. ثم كان الرجل هو أول من استعاد توازنه.. فسأل:
ـ ولمَ لا؟ ما زال الليل في أوله.
تمتمت وتفكيرها ما يزال متشوشاً:
ـ في الواقع.. كنت أفكر في النوم.
قال ساخراً: أنا لا أمانع أبداً.. لكنني أفضل مكاناً فيه خلوة، فهذا المكان مكتظ بالناس.
حدقت إليه مجفلة.. هو لا يعرف أنها تعيش هنا، ولا شك أنه أساء تفسير ما قالت أو تظاهر بهذا.. صدمتها فكرة أخرى فتحولت وجنتاها إلى لون وردي من فرط الحرج.. لقد أخطأ في فهم قولها البريء.. وهذا يعني أنه معتاد أن تقترح عليه فتيات في مثل عمرها أشياء مشتبه بها.
تصاعد رد حاد إلى شفتيها لكن قبل أن تتلفظ به أردف:
ـ اذهبي واحضري معطفك إذا كان معك معطف.. ستتجاوز مسألة غرفة النوم إلى يوم آخر.. أنت أصغر من أن تكوني على عجلة من أمرك.
إنه يهينها.. لذا ستكون حمقاء إن خرجت معه إلى أي مكان! ولعل ما زادها غضباً أن تسمع نفسها توافق على جلب وشاحها. قال آمراً دون أن تبدو عليه الدهشة من موافقتها الفورية.
ـ لاقيني عند الباب إذن.. بعد خمس دقائق.. أريد مكالمة الآنسة ويللي قبل الخروج إذا كان هذا ممكناً.
لو كانت ايريس تحمل بعض الشك في أنه يعرف غرايس فقد بدد ذاك

الشك ابتسامة دافئة علت وجه غرايس حين رأته يقف قربها.. واتجهت ايريس إلى الجهة الأخرى وأفكارها مشتتة.
تساءلت عما إذا كانت متعقلة فيما تفعل.. إنه أول موعد من هذا النوع تلزم نفسها به.. وكانت شكوكها تتزايد بسببه. هذا الرجل الذي تعمد عدم ذكر اسمه أكبر منها سناً فعمره لا يقلّ عن الثلاثين والواضح أنه رجل عابث وهو يملك ذلك النوع من الثقة المتعجرفة التي تدل بوضوح على طبيعة الحياة التي يعيشها.
شدت ايريس سترة الفراء القصيرة حولها.. لا شك أنها مجنونة لأنها وافقت على الذهاب إلى أي مكان معه.. مع ذلك، شعرت أنها قادرة على الثقة به كما أنها لن تمكث في الخارج طويلاً.. بحزم أبعدت عن فكرها تعليقه الشائن ذاك.
عندما عادت أفكارها إلى غرايس، عبست.. ربما عليها أن تخبرها بأمر خروجها.. ولكنها ستعود إلى المنزل قبل أن تفتقدها غرايس، هذا إذا فكرت فيها أصلاً قبل الصباح.. وغداً ستجدها في الفراش تشكو من ألم في الرأس.. أما إذا حضر رامزي لونغ ومعه العقد، فقد تكون في أفضل مزاج.
لحق بها الرجل بسرعة متجاوزاً الشبان الذين حاولوا تأخيره عند الباب، وانضم إليها بطريقة تجعل من الصعب أن يعرف أحد أنهما مغادران معاً. في المصعد، لم تتكلم وما تكلم هو.. بدا قانعاً بمراقبتها ويتأملها. كانت حدة نظرته التعبير الوحيد على وجهه.
ما إن استقرا في مقعد التاكسي الخلفي، حتى سألها:
ـ ألست قلقة من نواياي؟
أملت أن تخفي هزة كتفها شعورها بالخطر:
ـ وهل يجب أن أقلق؟
ـ في الحقيقة عليك ألا تقلقي.. ولكنني ما ظننتك واثقة هكذا.
أجفلها كلامه فردت غاضبة:

ـ طلبت مني الخروج.. فإذا كان الغرض من الدعوة الإهانة.. من الأفضل أن تنزلني حالاً.

قال بصوت رقيق، ويده تلتفّ على ذراعها بقوة، وكأنما ليتأكد من أنها لن تقفز من السيارة:

ـ لكنني لا أريد هذا.

بدا الشك في عينيها الزرقاوين وقالت بصوت متوسل:

ـ هذا كله سخيف! أرجوك.. أعدني إلى المنزل.

رد ساخراً:

ـ فات الأوان.. كان يجب أن تفكري ملياً قبل أن نغادر.. كان يجب أن تدركي أنني لست من طبقتك.

نظرت إليه فرأت السخرية والتسلية على فمه.. بغضب ولأنه مصيب بكلامه، قالت تتهمه:

ـ لم تمهلني وقتاً للتفكير!

لم يؤثر سخطها فيه إذ سأل:

ـ وهل تتواعدين مع الرجال بسهولة عادة؟

دفعتها سخريته للصراخ:

ـ لماذا تزعج نفسك معي ما دمت لا توافق على تصرفاتي كثيراً؟

ابتسم: «معك حق.. ربما كنت أمتحنك.. ربما كنت آمل أن ترفضي كل ما له علاقة بي».

ارتفع اللون الوردي إلى وجنتيها الجميلتين.

ـ إذن.. لقد علقت في فخ نصبته بنفسك.. وأنت الآن مضطر إلى شراء عشائي.

ـ ومراقصتك ربما؟

حاولت تحرير ذراعها من يده:

ـ لم نقل شيئاً عن هذا!

ـ ظننته أمراً مسلماً به.

كان كلامه يوحي بأنها فتاة سهلة المنال فارتجفت ذلاً وابتلعت ريقها بضعف:

ـ أنا لا أخرج عادة مع رجل إلا إذا كنا متعارفين.

ـ هذا ما أملته.

دهشت لتجهم وجهه المفاجيء، وتمتمت غاضبة:

ـ أنت من تظهر كل هذا وكأنه مشين. قلت إنك تعرف غرايس.. وأنا وافقت على الخروج معك من أجل.. حسناً من أجل فنجان قهوة. فما هو في هذا ما يستحق كل هذه الضجة؟

بدا وكأنه سينفجر، ثم عاد المرح إلى وجهه:

ـ أنت على حق.. أعتقد أن لقاءنا الغريب هو الذي دفعني.. لم أكن لأصدق أن هذا قد يحدث لي.

ابتلعت ايريس ريقها مرتين، وارتدت عنه لئلا يفضحها وجهها. سألت: «ماذا تعني؟»

قال وهو ينظر أمامه:

ـ أتكلم عن شرارة كهربائية صغيرة.

شعرت ايريس بأن أعصابها تتوتر.. وكم تمنت لو كانت لا تتذكر تلك الشرارة.. ولكن ربما يفكر في هذا المساء فقط.. إذ لا يمكن أن يكون واثقاً أنهما التقيا من قبل.

قالت بإصرار: «لا وجود لهذا النوع من الأشياء التي تتكلم عنها إلا في الروايات».

ـ لكن لا بدَّ أن للفكرة مصدراً ما.

تمتمت: «أظن أن الفكرة وليدة مخيلة شخص ما».

تساءلت بينها وبين نفسها عن سبب تسارع نبضات قلبها فجأة.

ابتسم: تعرفين كيف تكبتين مخيلة رجل.

ـ ربما يجب أن تكون ممتناً لهذا.

ابتسم: ربما.. فحياتي صعبة بما فيه الكفاية هذا دون البحث عن

تعقيدات أخرى.

أحست ايريس بالامتنان لأنها لا تستطيع الرد على هذا، لكنها لم تستطع إلا التساؤل عما إذا كانت التعقيدات التي ذكرها أنثوية.. ثم وصلا إلى المكان المنشود الذي هو نادٍ ليلي لم يسبق أن ارتادته.. وكان يقع في أعلى المبنى ويدعى «البحيرة الوردية».

سألت وهي تحاول إخفاء تزايد ارتباكها الغبي.

ـ ولماذا «الوردية»؟ لم يسبق أن سمعت ببحيرة وردية اللون.

راح يتفرس بها عبر الطاولة المعزولة التي حصل عليها بسهولة مذهلة.

ـ أعرف واحدة.. على الأقل هي وردية في أوقات محددة.. عند الفجر أو هكذا يتراءى لي.. سأصحبك لأريك إياها يوماً ما إذا أحببت.

ـ قد أحمل كلامك على محمل الجد وأصدقك.

ردّ ضاحكاً: «صدقي إذن».

أشار إلى الساقي، وطلب طعاماً باهظ الثمن دون أن يستشيرها فجعلها تعجرفه ترتعش فلم تستطع التفوه بكلمة.. كانت بطريقة ما مصدومة من تسرعها في المجيء معه لذا لم تستطع انتقاد ما يقول أو يفعل.

قال: «ألا تظنين أن الأفضل لنا أن نتعارف؟»

ـ هذا ما أظنه.

ـ لا أراك تشاركينني حماسي.. وهذا يدهشني لأنك أبديت فضولاً كبيراً.

ـ اعتقدتك ممثلاً.

تفرست في وجهه بحذر، وضاعت فجأة في خطوطه الكلاسيكية.. كان ذقنه عنيداً بارزاً في وسطه شق عميق.. وبدا فمه قوياً، وأنفه مستقيماً وعيناه محاطتين بأهداب كثيفة فيهما صراحة وجدتها مربكة.. جعلها شعره الأسود المتموج قليلاً ترتجف برغبة في تمرير أصابعها فيه.. وهي رغبة لم تشعر بمثلها من قبل.. وهذه الرغبة شبيهة برغبتها في عدم

التعرف إلى اسمه.. ولكن هذا لا يبدو منطقياً.

قالت عابسة: أشعر.. ويجب أن أتذكر.. أن وجهك مألوف لي بطريقة غامض.. لكنني لا أشاهد الكثير من الأفلام.

ارتفع حاجباه: «ألا تهتمين حقاً بمهنة التمثيل؟»

ردت بجفاء: «ترعرعت طوال حياتي مع أشخاص كان لهم شأن في هذه المهنة».

ـ وهل يفسر هذا كل شيء؟

ثار سخطها على سخريته فردت: «قلة منهم ينجون بدون عواقب».

ـ قد تكون مهنة مفيدة كثيراً.

ـ أتقصد.. مادياً؟

ـ ينظر معظم الناس إلى مهنهم من هذه الزاوية.

وصلت إلى ما تعتبره نقطة مهمة:

ـ وماذا عن حياتهم الخاصة؟ يعمل الممثلون جاهدين، مع ذلك تعاني حياتهم الخاصة من الفوضى.

مازحها: كلمات قاسية.

أزعجها استخفافه بها ورغم ذلك سألت، ويا للغرابة، بجرأة:

ـ كم زوجة تركتها وراءك؟ وكم ولداً يعاني بسبب زواجك الفاشل؟

عرفت أنها جاوزت الحد لذا أحست بخوف مفاجيء. كانت عيناه تبرقان غضباً.. ثم وكأن ستارة أُسدلت عاد وجهه خالياً من التعابير.

ـ يبدو أنك مقتنعة أن الزيجات الفاشلة هي امتياز محصور بمهنة التمثيل.. ولكن إرضاءً لفضولك أخبرك أني لم أطلق قط وأنه لا أولاد لدي، وكان لي زوجة واحدة ماتت منذ عشر سنوات.

شعرت ايريس بالخجل، ثم تجهم وجهها بعناد. إنه ينتظر منها التعاطف ليسكتها بكبرياء وبلا رحمة، لكنها شعرت بأنها مدينة له باعتذار.

ـ أنا آسفة.. لا عذر لكلامي.. فلا شأن لي بشؤونك الخاصة.

التوى فمه، ولم تصدق أن الالتواء كان بهدف المرح:

ـ هاه.. أنت متهورة كثيراً.. لكنني أفضل أن أنال اهتمامك بدل عدم اكتراثك.

لم يطمئن قلبها، وتسارعت دقاته ففي صوته ما هو غامض غير مستقر وهذا ما جعلها ترد بتهور ثانية:

ـ لست مهتمة بك بشكل خاص سيد..

قال بصوت فيه ما يشبه التهديد:

ـ لكنني آمل أن تصبحي مهتمة. وفي هذه الأثناء.. أظن أن علينا العودة إلى الرسميات.. لا يمكنك مناداتي باستمرار بالسيد...

وافقته الرأي بارتباك: «لا.. اسمي ابريس هالستون».

ـ وأنا.. اسمي رامزي لونغ.

ـ رامزي لونغ؟

لو رمى قنبلة لما كان وقعها أقوى على سمعها.. ارتفعت عيناها المصدومتان إليه ولكنها لم تستطع قراءة شيء في عينيه يقنعها أنه يمزح..

أضافت هامسة:

ـ لست رامزي لونغ..

ـ بإمكانك أن تتأكدي.

هبّت واقفة إذ استولى عليها الذعر. كادت تهرب لو لم يمسك بمعصمها بسرعة، وصاح بنفاد صبر:

ـ وهل أنت معتادة على الهروب؟

هل كان يشير إلى لقائهما السابق؟ هل يعرف؟ أهو الرجل الذي اصطدمت به في الكاراج؟ أبعدت عنها ريبتها.. ربما يحاول إلقاء ملاحظة عابرة.. مع ذلك كانت أنفاسها متسارعة وهي ترد:

ـ أظن أن عندي الليلة عذراً جيداً للهرب.

ـ حقاً؟

كرهت بريق التسلية في عينيه.. ولكنها عدت إلى العشرة قبل أن

تكون لئيمة مثله:

ـ كان عليك أن تذكر لي هويتك منذ التقينا.. رامزي لونغ المخرج الشهير.

رد بفظاظة: «آه.. ربما لم تتح لي الفرصة».

كانت واثقة مرة أخرى أن في كلامه أكثر مما يقول.. فردت بحدة:

ـ أنا لا أحب أن يستغفلني أحد سيد لونغ.. الآن بعدما عرفت هويتك أستغرب لأنني لم أتعرف إلى وجهك.. لكن هذا لا يعطيك العذر، أظنك تعمدت استغلالي.

ابتسم: أوه.. هيا الآن.. لم أحاول استغلالك.. اجلسي، بدأ الناس ينظرون إلينا باستغراب.. ولا أرغب في المزيد من الدعاية.

تكورت شفتاها بعناد:

ـ حقاً..؟ ظننت أن أمثالك يتعشون بالدعاية.

ـ أنت قطة صغيرة.. أليس كذلك؟ تميلين إلى بخ غضبك على أي شيء.. ومخالبك حادة جداً.

عادت على مضض إلى مقعدها متذمرة:

ـ لقد خدعتني.. ألا توافق أن من حقي أن أغضب؟

نظرت عيناه الرماديتان إليها بسخرية:

ـ لا.. لا أوافق.. ولست مقتنعاً أنك لم تتعرفي إليّ حتى الآن.

ردت غاضبة: «وكيف لي أن أعرف؟»

ـ بسهولة.

ترددت بارتباك وعرفت أن هذا صحيح. فهو معروف كثيراً، واسمه لامع في عالم السينما، وعوالم أخرى على علاقة بالسينما.. ولا شك وجهه معروف أيضاً..

تمتمت متوترة:

ـ أنا آسفة.. لأنني لم ألاحظ أشياء يجب أن أعرفها.

ـ لا بأس.. إن لم تلاحظيني في الماضي فسأتأكد أن تعرفيني في

المستقبل.

كررت عابسة وقد تذكرت شيئاً: في المستقبل؟

تسارعت أفكارها وتركزت على غرايس أكثر من نفسها، وسألت بأنفاس مقطوعة:

ـ الدور الذي تريده غرايس في فيلمك الجديد؟ هل حصلت عليه؟

قال بحدة: «إذن.. تعرفين بهذا؟»

غضّت ايريس نظرها.. ربما ما كان عليها أن تذكر له هذا.. وردت بحذر:

ـ أعرف أنها كانت تترقب أمراً.

قال بصوت ساخر: «وأنا كذلك».

ـ وهل تستمتع بإبقاء الناس معلقين؟

نظر إليها بهدوء وصمت، ثم قال:

ـ في الواقع كنت في طريقي لمقابلتها منذ أسبوع حين تعرضت لحادث بسيط.

ـ حادث؟

قال بصوت رقيق فيما تركت عيناه عينيها لتستقرا على معصمه المضمد.

ـ أجل.. انكسرت عظمة في يدي، فاضطررت إلى إصلاحها.. بعدها كان لدي مواعيد أخرى.

أحست ايريس برجفة تسري فيها:

ـ هكذا إذن؟ فهمت.

في هذه المرة قال بصوت رقيق بشكل لا يصدق:

ـ كنت آمل أن تفهمي.

* * *

تمتمت ايريس غير واثقة من نفسها:

ـ آسفة على معصمك.

ـ أنا واثق أنك آسفة.

قررت تجاهل السخرية الواضحة فأردفت رغم خجلها:

ـ عندما قلت إنك تريد محادثة غرايس قبل أن نغادر، تساءلت فقط.

تحركت كتفاه العريضتان قليلاً:

ـ الحفلة مكان غير صالح لنقاش جدي.. سأراها في الصباح.

ستكون غرايس مسرورة لهذا وسيكون مزاجها رائعاً إلا..؟ نظرت إليه بعينين قاتمتين خوفاً.

ـ هل ذكرتني لها؟

ارتفع حاجباه:

ـ لا.. وكيف أذكرك وأنا لا أعرف اسمك؟

ثم صرف النظر عن الكلام عن غرايس فجأة وهبَّ واقفاً ليدور حول الطاولة باتجاه ايريس التي شدّها لتقف:

ـ تعالي.. فلنرقص.. يمكننا بهذا نسيان الجانب الجدي من الحياة.

كان راقصاً ممتازاً، وهي أيضاً راقصة ماهرة عادة.. ولكنها بشكل طبيعي الليلة وهي ترقص مع رامزي لونغ خشيت أن تترك نفسها على سجيتها.. وحين شدها إليه أحست بوهن وعندما اشتدت ذراعاه أحست بدوار.. تأكدت الآن أنها كانت بين ذراعي هذا الرجل من قبل.

ولكن لمّا شهقت وأبعدت نفسها لم يحاول منعها.. بل تنهد وقال:

ـ الأفضل أن نعود.. يبدو أن تأثيري غريب فيك. أنا لا أستمتع بالرقص مع لوح خشبي.

شعرت بالخزي ولم تحاول تفسير ما هو غير منطقي حتى لنفسها.. لقد شبهها بلوح خشبي مع أنها كانت تنتفض من الداخل.

نظر إليها متسائلاً:

ـ سنتناول القهوة.. ثم أقلّك إلى بيتك.. أينما كان.

تجنبت الرد المباشر وجلست عاجزة. لم تكن تريد أن تشرب شيئاً ولم ترد أن يعرف أين تسكن، فمن الأفضل لها ألا تراه أبداً بعد اليوم. فإن اكتشف أنها تعيش مع غرايس، فقد يطلب أن يراها. إنها مخاطرة تفضل عدم الخوض فيها.. وإذا كانت ذكية فقد تتمكن من مراوغته فتعود بمفردها.

مع ذلك، قبل أن يتسنى لها الوقت لتفكر في شيء ما، مد يده إلى يدها ليمسكها بقوة، وكأنما يخشى أن تهرب منه، وتكلم بحزم، مدركاً نواياها بوضوح:

ـ لماذا تحاولين دائماً الهرب مني ايريس؟ لا أريد منك أن تتسرعي، بل أريد أن تبقي لتحدثيني عن نفسك.

توترت أصابعها في قبضته الدافئة، واندفعت عيناها المجفلتان إلى عينيه فخاضت نظرته الرمادية عباب وجهها، وأرسلت رعشة غريبة في أعماقها.. وهذا ما أنذرها وأنبأها بأن تلزم جانب الحذر.

ـ ليس هناك الكثير لأقوله..

ـ أتعنين.. لأنك صغيرة جداً؟

ـ لست صغيرة إلى هذا الحد، بلغت التاسعة عشرة منذ أسبوع.

ـ أسبوع؟

ـ أجل.

ـ وأقمت حفلة بلا شك؟

ـ لا.. فوالداي غير موجودين هنا، إنهما في الخارج.

ـ مع أنني توقعت احتفالاً ما.. أعتقد أن لديك الكثير من الشبان الأصدقاء.

ـ أوه.. لدي الكثير.

وتساءلت لماذا كذبت فقد رأت وجهه يكفهر وبدا غير راض، ولكن

وفيما كانت خائفة من أن يستمر في ملاحقة الموضوع فاجأها بتغيير دفّة الحديث.

ـ من أين تعرفين غرايس ويللي؟

كان سؤالاً أملت ألا يطرحه لكن بعدما طرحه، لم تجد وسيلة لتجنب الرد. فمن البلاهة الادعاء أن غرايس معرفة عابرة.. وليس من التعقل قول هذا.. وهي على أي حال غير خجلى من ادعاء الصلة بغرايس لأنها ممثلة معروفة وشهيرة.. لكن بدا لها أنه كلما قلّت معرفة رامزي لونغ بها كلما كان ذلك أفضل.. تنهدت فقد أدركت أنها قد تكون مراوغة مع رجل مثل هذا إلى حدود معينة.. ولأنها كانت غبية قبلت الخروج معه ولكنها ستكون أغبى بكثير إن استخفت بالعواقب.

أطلعته على الأمر وإن بمضض:

ـ غرايس ابنة عم بعيدة لأمي، وأنا أعيش معها.

ـ تعيشين معها؟ فهمت.. لكنني لا أذكر أنني رأيتك.

ـ أنا لست ممثلة إذا كان هذا ما تقصده.. ولا أريد أن أكون.

تجاهل احتقارها، وسأل: «ماذا تعملين إذن؟»

فجأة أحست بالحذر..

ـ أنا لا أعمل كثيراً.

ضاقت عيناه المركزتان عليها بريبة:

ـ لماذا لا تعملين كثيراً؟

هزت كتفيها: ولمَ لا؟

أرادت أن توحي له بأنها لا تخجل من تكاسلها.. لكنه لم ينخدع بسهولة.. ودافعت عن نفسها بشدة.. فلا سبب يدعوها إلى أن تخبره شيئاً مهما كان والأرجح أنه لن يكون مهتماً.

وكأنما تحديها له أغاظه، إذ لم يعلق بل جلس صامتاً بضع ثوانٍ وعيناه لا تفارقان وجهها.

قال فجأة: «أظن أن علينا الخروج من هنا».

توقعت ايريس أن يرجعها إلى منزل غرايس في طابق المبنى العلوي.. ولكنها ذعرت حين وجدته يقود السيارة باتجاه آخر.. ما زالا في «الوست اند» ولكنها غير قادرة على تحديد المكان بالضبط فالسماء تمطر بغزارة.. فكرت أمن الحكمة أن تسأله عما إذا أخطأ وجهته؟ ولكن التاكسي وقف أمام منزل مرتفع يقع في زاوية هادئة.. وقبل أن تستطيع الاحتجاج، دفع رامزي لونغ الأجرة وهما واقفان على الرصيف المبتل.

أدارها بثبات نحو المنزل.. ولم يتوقف حتى قالت ببرود:

ـ هذا ليس المكان الذي أعيش فيه.

رد باختصار: «أنا لا أدعي هذا.. ولا أطلب منك مساكنتي.. أسوأ ما في ذهني هذا المساء هو فنجان قهوة.. لو كنت تعيشين مع والديك، لأرجعتك على الأرجح إلى منزلهما ورجوتك أن تقدمي لي القهوة».

ترددت مرغمة فهي غير مقتنعة بأن القهوة هي كل ما يفكر فيه. نظرت إلى وجهه بريبة:

ـ الوقت متأخر. يجب أن أعود إلى البيت.

ـ بعد القهوة.. سأتصل لأطلب سيارة أجرة أخرى. أخشى ألا أكون قادراً على قيادة سيارتي مدة يوم أو يومين آخرين فحتى ذلك الوقت يكون معصمي قد شفي.. ولكنني قادر على مرافقتك.

لم ينفع تأكيده هذا بالتخفيف من قلقها المتزايد، ومع أن عائلتها لا تحترم التقاليد أو العادات فقد حاولت هي بشدة الالتزام بالتقاليد.

وجدت نفسها فجأة في منزله.. لم تدر كيف دخلت وتساءلت برهبة كيف سمحت لنفسها بالاقتناع بسهولة.. نعم لقد احتجت ولكن ذلك غير كاف، فلديها شعور بأنها تخطو نحو خطر داهم فالرجال عادة لا يحترمون الفتيات اللواتي يتركن منازلهن في منتصف الليل.

كان للردهة الواسعة المغطاة بسجادة بيضاء سميكة جدران زرقاء شاحبة، وألواح خشبية قاتمة. وهذه الجدران مزينة بلوحات جميلة مبهرجة الألوان. بدا لها المدخل الدليل الواضح على شخصية صاحبه فلا

شيء في غير محله..

ارتجفت ايريس مرة أخرى عندما اقتادها رامزي من درج عريض إلى الطابق الأول.. مر بها أمام عدة أبواب، ثم فتح باباً يفضي إلى غرفة جلوس صغيرة منمنمة ودافئة أدهشتها.. لاحظ هو هذا.

ـ فكرت أنك قد تعجبين بهذه أكثر من الغرفة الأخرى الأكبر حجماً، وهذه الغرفة هي ما أستخدم حين أكون بمفردي.

ما قاله زاد من سرعة خفقات قلب ايريس.. مع ذلك وجدت أنها تنظر إلى الجدران المرصوفة بالكتب، وإلى المقاعد المريحة وإلى الأريكة الطويلة باطمئنان.. قد يكون منزل غرايس أنيقاً، ولكنه يفتقر إلى الدفء البيتي الذي لم تعرفه قطُّ.

توقفت عينا رامزي على وجهها المعبر بشيء من التسلية، وقال:

ـ اجلسي.. لن يستغرق إعداد القهوة سوى دقيقة.

ازداد شعورها بالاطمئنان لأنها عرفت أنه ينوي فعلاً إعداد القهوة.. فابتسمت له:

ـ هل تسكن هنا منذ وقت طويل؟

أجفلته ابتسامتها التي أنارت كل وجهها فرد ببطء:

ـ منذ بضع سنوات.. فكثيراً ما أسافر إلى الخارج.. وكثيراً ما يبقى المنزل خالياً.. ولكنه مفيد لي وأنا في لندن.

ـ إذن قد تسافر مرة أخرى قريباً؟

ـ لا تعتمدي على هذا.

بدا أن ملاحظته الجافة تحرك علاقتهما إلى مستوى شخصي.. وهذا ما جعلها ترتجف.

ـ لم يخطر ببالي هذا.

رد ساخراً: «سأقتنع بهذا».

فجأة أخذ قلبها يخفق بثقل.. أحست بتعب وإرهاق شديدين فكادت تبكي.. لقد وصلت إلى هنا للتو مع ذلك تحس برغبة في الفرار.. قالت:

ـ إذا كنت تريد صنع القهوة، فسأكون شاكرة لك لو صنعتها فوراً لأتمكن من العودة إلى المنزل.. ستقلق غرايس عليّ.

امتلأ صوته بالسخرية وهو يقول:

ـ وهل ستقلق حقاً؟ حسناً.. انتظريني ريثما أرى ما سأجده في المطبخ.

كانت التدفئة الداخلية تشتغل وتخلصت ايريس من سترة الفراء، وجلست بحذر على الأريكة. كان هناك كتب على مقعدين، وكومة أوراق على الثالث.. ولكن لم يكن هناك على الأريكة غير بضع وسائد كبيرة.. تنهدت وهي تغوص فيها وبدأ هدوء الغرفة يهدىء من روعها.. لو كان لدى غرايس غرفة كهذه لكان من السهل الاسترخاء فيها.. لكن غرايس تحب ديكورها العصري الأنيق.. ولا وقت لديها لما هو عاطفي.

بعدما وعد أنه لن يتأخر لحظة دهشت لأنه أطال الغيبة وعندما عاد كانت تغط في نوم عميق.

لأنها متعبة، نامت نوماً عميقاً ولم تعرف ما الذي أيقظها بل لم تستطع التفكير أين هي، وكل ما كانت تشعر به هو خوف رهيب.. ما إن استعادت وعيها حتى أحست برعب حقيقي.. فهي مستلقية على الأريكة وقربها رامزي لونغ الذي كان يلف ذراعه حولها.. لاحظت نور النهار يتسلل من النافذة، فاتسعت عيناها بجنون.

فجأة حاولت الابتعاد عنه لتجلس، لكن الذراع القوية الملتفة بها رفضت تركها.. تصاعد الذعر في نفسها فتوقفت عن المقاومة لتسحب أنفاساً غير منتظمة.. يبدو أن رامزي لونغ نام نوماً طويلاً عميقاً.. نظرت إلى وجهه مذهولة فرأت أن الكثير من الخطوط تلاشت عن جبهته العريضة، ومن حول عينيه وبدا فمه مسترخياً وليس ذلك فحسب بل لاحظت بسمة خفيفة.

فجأة وجدت نفسها تتردد بشكل مخجل، فقد أحست بدافع غريب إلى معانقته. نهرت نفسها ولكن ما الذي في رامزي حتى تنجذب إليه بهذه

القوة وهذا العنف؟ استحوذ عليها في هذه اللحظة شعور بالعجز وتحركت مشاعرها فراحت عيناها تطوفان عليه.. شهقت غير قادرة على السيطرة على مشاعرها.. وبدا أن ثقل ذراعه يعذبها.

عادت عيناها إلى وجهه فوجدته مستيقظاً ينظر إليها خلسة.. في عينيه ألسنة من النار أخافتها.. فعادت فجأة إلى وعيها، وبدأت تقاوم.

ـ لا أدري إذا كانت هذه فكرتك عن المزاح.. ولكنها بكل تأكيد ليست فكرتي!

رد باختصار: «وليست فكرتي أنا أيضاً».

ازداد ذعرها لأنه لم يتحرك بعد.. فصاحت: «دعني.. إذن!»

تمتم بصوت خفيض: «بعد دقيقة».

جعل الغضب قلبها يخفق بشراسة: بعد دقيقة؟

توقفت عن المقاومة لتلتقط أنفاسها ولكنها لو استطاعت لغرزت أظافرها في وجهه الساخر.. وكأنه عرف ما تفكر فيه فقد اشتدت ذراعه حولها حتى أصبحت عاجزة.

قالت بصوت مخنوق: «هذا أمر سخيف! دعني رامزي حالاً!»

ـ ليس بعد.

حملت قسوة صوته الدموع إلى عينيها فحاولت كبتها:

ـ لا يحق لك أن تفعل بي هذا.

قال ببرود: «لقد غفوتِ.. ولم أطلب منك هذا».

ردت بحدة: «كان يمكنك أن توقظني.. كنت متعبة».

نظر إلى عينيها المغرورقتين بالدمع بعدم اكتراث:

ـ وهل كنت حقاً؟ أتساءل ما هو الذي أتعبك.. ما دمت لا تعملين فهذا يعني أن السهر الطويل هو السبب..

همست بشراسة مدركة أن أنفاسها متهدجة بطريقة تثير الاضطراب..

ـ إلام تلمح بالضبط؟

التوت شفتاه، وقال ساخراً:

ـ وهل يجب أن أشرح لك؟ السهر الطويل مع أصدقائك الغريبي الأطوار.. لقد رأيت بنفسي النموذج الذي كان معك على الشرفة.

لم تحاول الإنكار:

ـ أنت لا تمزح.

ـ أولست مصيباً؟

ـ لا!

قربتها حركتها الغاضبة منه كثيراً، فضغطت نفسها إلى الوراء قدر المستطاع.. ثم تأوهت:

ـ أوه.. لماذا تبقيني هنا؟ ماذا سيظن الناس بي؟ مع أنني لم أفعل ما أستحق عليه هذا.. إلا إذا..

تلاشى صوتها ووجدت نظرها يتجه إلى معصمه، فشهقت:

ـ أوه.. يا إلهي..

وجرت دموع الشفقة على النفس على خديها المحترقين، فقال بصوت هامس: «بالضبط».

فغرت فاها ذهولاً: «لا».

شد ذراعه حولها وسحقها كما يسحق وحش مفترس زهرة في طريقه.. أحست بالألم من جراء عناقه.. ولكنه كان ألماً ليس كأي ألم آخر.. حررت ذراعيها مذعورة ولكنها بدل أن تنسحب تعلقت به كالعمياء.

أحست بصدمة عندما سمعته يتكلم:

ـ أنت فتاة الكاراج.. الفتاة التي يجب أن أشكرها لأنها كسرت معصمي.. أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ ولمَ أنت واثقة هكذا؟

لملمت شتات شجاعتها قبل أن يفلت منها اعتراف آخر سخيف، وتمكنت من القول بشيء من الغموض وكأنما يمكن أن تكون مخطئة:

ـ أظن أنني أتذكرك.

أبعد نفسه عنها ببطء فتركها فريسة مزيج غريب من المشاعر.

ـ تعرفين أن من المستحيل عليّ أن أنساك.

خرج خفقان قلبها عن سيطرتها.. ورفعت نفسها عن الأريكة بصعوبة. نظرت من النافذة إلى الخارج فلما رأت خيوط الفجر، التفتت إليه تهاجمه:

ـ لماذا صحبتني إلى منزلك وتعمدت إبقائي طوال الليل؟ ماذا سيظن الناس بي؟

ـ يبدو أن هذا هو سبب قلقك الرئيسي.

كان وجهه شاحباً لكن قاسياً يشبه قطعة حجر..

قالت تتحداه:

ـ ولِمَ لا؟ إن كنت ممن لا يهتم برأي الناس فهذا لا يعني أن غيرك لا يهتم.

سألها ببرود: وهل أنا المخطىء لأنك غفوت؟

صاحت غاضبة:

ـ لا! لكن كان بإمكانك أن توقظني.. ولم تكن مضطراً إلى النوم أيضاً.

ـ لم أكن أنوي النوم. حاولت إيقاظك لكنك لم تستجيبي.. وهنا ارتكبت غلطة، تركتك تستريحين عشر دقائق، وعلى ما يبدو أنني غفوت خلالها أيضاً.

تورد وجهها بشدة:

ـ كنت ممدداً إلى جانبي!

ـ ربما حدث هذا عن غير وعي مني كذلك..

ردت ساخرة: «لست مقتنعة كثيراً بكلامك هذا».

اشتد فمه حتى تحوّل إلى خط رفيع:

ـ بدأت أعتقد أنك بحاجة إلى الكثير من الإقناع في كل شيء..

بالنسبة لفتاة شابة أنت ساخرة كثيراً.

آلمها كلامه وإن كانت لا تعرف لذلك سبباً... ردت بحدة:

ـ حسناً، لم تكسب شيئاً من اصطحابي إلى هنا.

رد بصوت متجهم:

ـ ولم أكن آمل أن أكسب شيئاً.. أردت فقط أن أرضي فضولي.

رفرفت عينيها مذهولة:

ـ إذا كنت تشعر بالفضول حول شيء ما فلماذا لم تسألني عنه في المطعم؟

التفت إليها بعينين كعيني الصقر:

ـ صحبتك إلى هنا لأنها الطريقة الوحيدة لأتأكد.. فلو سألتك عما إذا كنت فتاة الكاراج التي اصطدمت بي تحت مبنى شقة غرايس، لأنكرت هذا.. ولربما وافقت، فلن تكون المرة الأولى التي تتمسك فيها فتاة بفرصة التعرف إليَّ بغض النظر عن الحقيقة.

أحست فجأة بالتوتر.. فهزت رأسها لأنها غير متأكدة إلى ماذا يلمح.. فهي لا تثق بالبريق الذي تراه في عينيه.

ـ لا أدري ما هو الاستنتاج الذي توصلت إليه عني سيد لونغ.. لكنني أفضل ألا تقوله لي.. فجلّ ما أهتم به الآن هو الذهاب إلى المنزل.

ـ هل تعتقدين أنني بغيض لأنني أردت أن أكتشف ما إذا كنت الفتاة التي أبعدتني عن العمل مدة أسبوع؟

ـ إنها طريقة في الالتفاف ربما.

ـ لكنني ما آذيت سوى كرامتك.. أما أنت فلجأت للعنف.

ـ أرفض أن أصدق..

صمتت عابسة وهي تنظر إلى معصمه:

ـ لم أقصد أن أوقعك.. وأنا آسفة إن تأذيت.. لكنك أخفتني!

ـ أكان هذا كل شيء؟

ـ وهل يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر؟

ضاقت عيناه اللتان التهبتا فجأة:

ـ ليتك تكونين مصيبة! لقد أثرت فضولي وحركت مخيلتي.. ولكن برنامج عملي مليء ولا يسمح لي بأي شيء آخر.. سأعيدك إلى المنزل وإلى فراشك المناسب.

تحرك بنفاد صبر فالتقط سترة الفراء:

ـ من الأفضل أن ترتدي هذه.. فهواء الصباح بارد.

دست ذراعها في السترة:

ـ أوه.. أجل.. إنها لغرايس، ولا أريد أن أفقدها.

ـ أليس لديك سترة من الفراء؟

ـ لا.. ولا أهتم بذلك.. ولكن غرايس تصر عليّ حتى أستخدم هذه.

لم يعلق بشيء حتى وصلا إلى شقة غرايس، وقال بشكل مختصر:

ـ سأعود بعد بضع ساعات لأرى غرايس، وأريد منك أن تكوني موجودة.

رغم الغضب الذي يثيره فيها هذا الرجل، كان في صوتها رجاء:

ـ أهذا تهديد أم طلب سيد لونغ؟ أم لعلك تحاول أن تكون مهذباً؟

ـ يكفيني واحد من السببين الأولين ما دمت ستكونين حاضرة إذ لا يمكن الوثوق بالنساء.. ثم إن اسمي رامزي.

ارتدت على عقبيها تاركة إياه بمفرده.

أرادت أن تبقى مستيقظة وأن تبتعد عن الشقة مبكراً لتتجنب رؤيته.. ولكن العكس حدث وكم غضبت من نفسها لأنها استغرقت في النوم.. أيقظتها غرايس في سابقة لم يسبق لها مثيل، فمن عادتها ألا تستيقظ قبل منتصف النهار حين لا تعمل.

شهقت ايريس: «آسفة.. لم أقصد أن أطيل النوم».

ردت غرايس بحدة:

ـ لا يدهشني هذا نظراً لمن كنت معه ليلة أمس! وأظنك أرهقت نفسك

بأحلام مجنونة مستحيلة!

ـ ماذا...؟

ـ حبيبتي.. لا تتذاكي عليّ.. لقد كلمت رامزي لونغ على الهاتف وأخبرني كل شيء.

توردت وجنتا ايريس: كل...؟

ـ ما الذي يجري ايريس؟

ـ لا شيء! دعاني السيد لونغ إلى العشاء، ثم رقصنا. ولم يبدُ على استعداد للإصغاء حين قلت له إنني أريد العودة قبل منتصف الليل.. ولم أرغب أن أصرّ، خشية أن أفسد برفضي فرصة حصولك على الدور في فيلمه القادم.

صمتت غرايس وتغير مزاجها قليلاً:

ـ أريد فعلاً ذلك الدور.. إنما ليس على حساب تضحيتك.

ـ تضحيتي؟

صاحت غرايس: آه حباً بالله.. لا تتصرفي كفتاة في الثانية من عمرها.. فأنت تفهمين ما أتحدث عنه!

كبتت ايريس لمحة شك باردة، وردت:

ـ إذا كنت تلمحين إلى أن السيد لونغ لن يعطيك الدور إلا إذا أقمت علاقة معه، فأنا متأكدة أنك مخطئة.

بدا الاحتقار على وجه غرايس بسبب ثقة ايريس بنفسها:

ـ حقاً؟ هو ليس بتلميذ مدرسة ليكون مطلبه واضحاً هكذا.. بل أشك في أن يطلب منك شيئاً لأنه سيجلس منتظراً حدوث كل شيء.

حافظت ايريس على هدوء صوتها:

ـ رأيك هذا بناء على تصرفاته السابقة على ما أعتقد؟

ردت غرايس:

ـ لا أحد يستطيع معرفة ما قد يفعله هذا الرجل. لكن أمراً واحداً لا يستطيع أحد إيقافه، الشائعات.. صدقيني يا طفلتي.. هناك شائعات

كثيرة عن رامزي لونغ.

ـ لن تطالني الشائعات، فتوقفي عن القلق فما هو من الصنف الذي أحب وهو إلى ذلك أكبر مني بكثير.

ارتفع حاجبا غرايس: «إنه في الثالثة والثلاثين.. دعك من هذا الادّعاء! ولست طفلة وإن كنت تتصرفين أحياناً كطفلة، فسيبقى حتى ولو بلغ الستين رجلاً نشيطاً فيه من الحيوية ما يكفيه ليتعامل مع من هي في مثل سنك».

تعرف ايريس أن هذا صحيح ومع ذلك رفضت الاعتراف:

ـ من غير المعقول أن أعرفه في مثل هذا السن.

ـ ذلك الوقت لا يهم.. ما يهم هو الآن.. إن أخرجك بالأمس بسبب اندفاع متهور.. فلماذا يريد رؤيتك هذا الصباح؟

لم تستطع ايريس إخفاء رعبها:

ـ هذا الصباح؟ ما الذي قاله لك؟ لا أظنه جاداً في رؤيتي مجدداً.

قفزت غرايس وأمسكت بشعرها لتمزقه:

ـ حمقاء! إنه ليس بالرجل الذي يتفوه بملاحظات عابرة في الهاتف، وفي الثامنة صباحاً.. إيريس يجب أن تكون موجودة.. قالها ويعني ما يقول!

تمتمت ايريس غير عابئة بطباع غرايس المحتدة:

ـ حسناً.. لن أكون هنا..

صاحت غرايس التي اشتعل غضبها:

ـ من الأفضل أن تكوني حبيبتي..

طافت عيناها في وجه ايريس المرتبك وأضافت:

ـ أنا حائرة بمقدار ما أنت حائرة.. ولكن لدي شعور بأن غيابك عن الجلسة يعني توديع كل أمل لي في المشاركة بفيلمه التالي.. فإن لم تبقي لن أحصل على الدور وإن حدث ذلك فلن يكون أمامك إلا توديعي.

تبادلت الفتاتان النظرات الحادة، ولكن كالعادة كانت ايريس الخاسرة

إذ قالت على مضض:

ـ ربحت.. فإلى أين أذهب؟ وأنت بالأصل غير مضطرة لاستقبالي.

ردّت غرايس بسرعة: «لا حاجة بنا إلى خوض غمار هذا الموضوع ولا تكوني مستاءة هكذا.. ربما أهملك والداك قليلاً.. ولكنني لا أظنهما أسوأ من آلاف أمثالهما. كان عليك أن تتعلمي تقبل هذا الواقع منذ زمن بعيد».

اعتذرت ايريس:

ـ أرجو ألا تظني أنني ناكرة للجميل غرايس..

هزت غرايس كتفيها: لم أتذمر لك.. ولم أطلب منك شيئاً حتى الآن.

قالت ايريس بتواضع وتذلل:

ـ أعرف هذا.. وأنا شاكرة لك.. لكنك لا تستطيعين لومي بسبب ما سيقرره السيد لونغ.. على أي حال سأعمد للبحث عن مكان أسكن فيه.

وافقتها غرايس الرأي ولكن مزاجها النكد تلاشى:

ـ طبعاً.. طبعاً.. إنما لا مانع عندي إن بقيت هنا حقاً، حبيبتي. في الواقع أنت مفيدة لي في بعض الأوقات.. وإن كنت مستاءة منك الآن فالسبب عائد إلى لهفتي للحصول على اتفاق مع رامزي، قبل أن أسافر في إجازة.

تنهدت ايريس التي شعرت أنها عالقة في فخ:

ـ أجل.. أعتقد هذا.. وأعدك أن أقدم يد المساعدة إن كان بيدي حيلة، لكنني جادة بشأن البحث عن مسكن لي.

ـ بالتأكيد، ولن أحاول إبقاءك رغماً عنك.

ابتسمت غرايس التي حصلت على ما تريد.. نظرت إلى الساعة بلهفة:

ـ والآن أعتقد أن علينا معاً أن نتحرك وإلا وصل رامزي قبل أن نكون جاهزتين.

هزت ايريس رأسها على مضض: «سأسرع».

وقفت غرايس لحظة قبل أن تخرج.. لتقترح:

ـ اسمعي.. إن كنت حقاً جادة في الحصول على مسكن فسأعمد بعد عودتي من إجازتي في برمودا، إلى إيجاد مشترٍ لذلك المكان القديم الذي آلى إليك في «ديفون».. لا شك أنه يساوي شيئاً.

عندما كانت تستحم، فكرت ايريس بالمنزل الذي آل إليها بالوصية.. لم تره حتى الآن لأنها لم تستطع ادّخار أجرة القطار إلى هناك.. فكل ما تنتجه يذهب إلى غرايس ثمن الإقامة والمأكل.. لقد أورثها إياه قريب بعيد ولا تعرف لماذا.. لكن المحامي أخبرها بأنه في حالة مزرية.. على أي حال لا شك أنه يساوي شيئاً.. ومهما كان المبلغ الذي ستحصل عليه منه فسيساعدها على إيجاد شقة صغيرة لها وحدها.

وصل رامزي لونغ بعد نصف ساعة.. في هذا الوقت كانت أعصاب ايريس مشدودة بحيث عرفت أنها قد تولي هاربة إن لم تسيطر على توترها.

كانت غرايس ترتدي فستاناً مبهرجاً يعكس نفسيتها فبدت ايريس أمامها قبيحة إذ كانت ترتدي سروالاً من الجينز وقميصاً..

حين قرع جرس الباب ذهبت غرايس لترد، أما ايريس فلازمت مكانها وهي تحس بتشنج غريب.

سمعت صوت غرايس: «مرحباً رامزي!»

رد رامزي بشكل رسمي، وعلق باختصار على البرودة في الجو. ثم وصلا إلى غرفة الاستقبال حيث دنا رامزي من ايريس فوراً: مرحباً ايريس.

مد لها يداً فاضطرت إلى مصافحته.. عندما كان يمسك يدها بين يديه أجفلتها شرارة الاتصال التي سرت بينهما فأسرعت تسحب يدها. لم تلاحظ الهدية الكبيرة التي يحملها تحت ذراعه ولم تتساءل عنها حتى رأت غرايس تدقق النظر ببطاقة المحل المرفقة بالهدية.

ردت باختصار: «صباح الخير سيد لونغ».

رد يصحح لها كلامها: «رامزي».

ولكنه كان يفكر في شيء آخر.. رفع أمام دهشتها الهدية التي يحملها ووضعها في حضنها:

ـ هذه لك.. هدية صغيرة لأنك وافقت على الخروج معي ليلة أمس وهي في الوقت ذاته اعتذار عن أي إزعاج سببته لك.

فيم يفكر؟ وما هي الهدية؟ نظرت ايريس إلى الهدية الضخمة بارتباك كامل.

ـ لن أقبل الهدية سواء أأزعجتني أم لم تزعجني. والواقع أني لا أقبل الهدايا من الرجال.. خاصة ممن لا أعرفهم.

كادت عينا غرايس تقفزان من محجريهما: ألن تفتحيها؟

ولأن ايريس تقف مترددة، ورامزي يقف ساكتاً، تولت غرايس مهمة فتح الهدية التي ما إن رأت ما هي حتى وجدت صعوبة في التنفس.

ـ فراء المنك.

قال رامزي لونغ:

ـ قالت ايريس ليلة أمس.. إنها مجبرة على استعارة معطفك لأنها لا تملك واحداً.

ضحكت غرايس بحدة:

ـ كانت مع الرفيق المناسب حين اشتكت.

في صوتها وضحكتها تلميح مبطن لا يستطيع أحد إلا أن يفهم ما تعني، خاصة ايريس التي أحست أنها ستنفجر غضباً في أية لحظة.

* * *

٢ ـ نيران غضبه

قالت غرايس بلهجة لاذعة:

ـ أنت فتاة محظوظة بل أنت أذكى مما كنت أتصور.

ردت ايريس:

ـ ربما.. لكنني لا أريد هدية كهذه ولن أقبلها.. لو قدّم إليّ علبة حلوى لكنت أسعد حالاً.

لكن عينيها اتسعتا ذهولاً عندما رأت الفراء الجميل الذي تحمله غرايس بإجلال.. أسرعت تنزعه منها، ورمته إلى ما بين ذراعي رامزي لونغ، صائحة:

ـ هاك سيد لونغ.. اذهب وجرّبه على شخص آخر!

عبس واكفر وجهه بشكل ظاهر: هل ترفضينه؟

ـ قلت لك إني أرفضه.. ألا تفهم الإنكليزية؟

رد بغضب، والاحمرار يزحف من تحت فكيه:

ـ بل أفهم الإهانة.

ردت بشراسة وقد نسيت الحذر:

ـ افهم ما شئت طالما تتلقى الرسالة.

جمدت عيناه ووجهه:

ـ فهمتها بكل تأكيد.. فأنا أفهم التلميح كأي رجل آخر.. ولقد تمكنت من تبليغها بأدل طريقة.. أنت لا تريدين كل ما له صلة بي، وسأضيّع وقتي إن قدّمت لك شيئاً آخر. والآن سأذهب.

صاحت غرايس وكأنها فهمت للتو ما يقول:

ـ هاي.. مهلك لحظة..! لا شأن لي في هذا كله رامزي.. لم أفعل شيئاً لأقلب ايريس ضدك.. أعتقد أنك آتٍ لتراني؟

توقف وهو في طريقه إلى الباب، ولكنه كان متجهماً تجهماً أجفل ايريس إذ بدا كرجل اكتشف أن سبيله مليء بالعثرات، وتتملكه رغبة عنيفة بأن يرفسها ليبعدها عن طريقه.. وقال مؤكداً قبل أن يرتد مجدداً:

ـ أجل.. لقد جئت أراك.

ـ لكنني لا أفهم...

قاطعها رامزي ببرود حاد:

ـ فكري في الأمر على هذا النحو.. ما دامت ابنة عمك ترفض أن تقبل شيئاً.. فمن المحتمل أن ترفض أشياء.. وما دامت تكرهني إلى هذا الحد فلن تستطيع أن تكون لطيفة، فكيف يمكن أن نعمل معاً؟

نظرت غرايس نظرة حقد إلى ايريس وصاحت:

ـ لكنني أتكلم عن عقد فيلم، وهذا أمر يخصني وحدي! ولا أدري ما يجري هنا.. ولكنني أرجوك، رامزي، لا تجعلني أعاني بسبب شيء لا أعرف عنه شيئاً!

رد بلطف ورقة: «لن أحلم بهذا أبداً.. مع ذلك فعليّ أن أخبرك بأن دورك يعتمد إلى حد ما على ايريس التي لا تبدو مهتمة».

شهقت ايريس: «إلامَ تحاول الوصول، سيد لونغ؟»

لم تكن تريد أن تعرف.. ولكنها لا تريد أن ترى غرايس متوترة.. فإن انفجر غضب غرايس فقد يعني هذا نهاية تعاملها مع رامزي لونغ.. ابتلعت ريقها بسرعة، ونظرت إلى رامزي، وقالت بصوت هامس متوسل:

ـ هلاّ فسّرت قولك رجاءً.

نظر إليها ساخراً:

ـ وهل أنت مستعدة للإصغاء.

بسبب غرايس لن تستطيع إلا الإصغاء.. هزت رأسها موافقة.

فقال رامزي يفاجئها بكلامه:

ـ سأختصر: من أجل الدور الذي ستقوم به غرايس في فيلمي الجديد الذي تجري أحداثه في القرن الماضي، يجب أن يكون لها وصيفة.. إنه دور صغير ولكنه ضروري، وأريد أن تمثلي أنت الدور.. ايريس.

ـ أنا!

ـ ولمَ لا؟ أعتقد أنك مثلت أدواراً صغيرة من قبل؟

حدقت ايريس إليه وفقدت القدرة على النطق، ورأت بروز ذقنه العنيد..

قالت: حدث مرة أن مثلت وكنت يومذاك في الثانية عشرة من عمري. مثلت الدور مع أبي الذي أصرّ على إشراكي.. ولكنني كرهت ذلك، وما أشد ما كنت مسرورة بالعودة إلى المدرسة ومنذ ذاك الوقت لم أكرر المحاولة.

صرف النظر عن احتجاجها وكأنه لم يسمع شيئاً:

ـ لا أهمية لهذا فما سأطلبه منك غير صعب، وسأقدّم كل المساعدة التي قد تحتاجينها.

زاد لطفه من حذر ايريس..

ـ لا سيد لونغ.. أنا آسفة.. لا أستطيع.

كان رفضها تلقائياً ومع ذلك حاولت أن تكون لبقة..

قاطعتهما غرايس بحدة، وهي حائرة كايريس. ولكنها وجدت أن ايريس مجنونة لعدم تمسكها بالفرصة.. الفرصة التي قد تزهق أية فتاة روحها من أجلها.

ـ لا أرى ما يمنعك ايريس.. بل أظنها فكرة جيدة، ثم أنا معتادة على وجودك معي.

إنها طريقة أخرى للإيحاء بأنها مدينة لها. أدركت ايريس هذا واعترفت به.. مع ذلك هزت رأسها.

ـ لا.. أنا آسفة.

مرة أخرى، وقبل أن يثور رامزي مجدداً، قالت غرايس بسرعة:

ـ دعني أكلمها رامزي، سأقنعها أنا بذلك. إنها تطبع على الآلة الكاتبة كتاباً لأحد الكتّاب ولكنه عمل يسهل التوقف عنه.

ـ رجل؟

لا يمكن أن يكون صوته أكثر برودة!

ذعرت ايريس لأنها تذكرت أنها أوحت له بأنها لا تعمل. قالت: «أجل.. وهو في غاية اللطف بحيث لا يمكنني أن أتخلى عنه».

ابيض وجه رامزي من فرط الغضب: من هو؟

عندما لم ترد ايريس هزت غرايس كتفيها:

ـ لا تسألني! إنه أستاذ جامعي على ما أظن!

صاحت ايريس غاضبة:

ـ اسمه كلاري رانر.. وهو مشهور في ميدانه، وأنا مدينة له كثيراً.

هذا غير صحيح لأنها تقبل القيام بأي عمل متاح لها.. لكن إن كان هذا يساعدها في محاربة رامزي لونغ أفلا يستحق الأمر العناء؟

ـ وماذا عن غرايس هنا؟ ألم تكن لطيفة معك؟

تمتمت غرايس وهي تمثل دور الملاك:

ـ أبذل قُصارى جهدي.. وفي المقابل لا أسألها الكثير.

تعاطف معها رامزي: حتى الآن.

ونظر إلى ايريس ببرود من فوق رأس غرايس المنحني بشكل مثير للشفقة.

ردت ايريس نظرته بعناد، ولم تزعج نفسها في إخفاء غضبها.. فهو يتصرف وكأن من الطبيعي أن يقوم بالضغوط التي مارسها عليها منذ التقيا.. ولعل أكثر ما كرهته منه هو إشراك غرايس التي ستكرهها، وكراهية غرايس أمر غير مرضي أبداً! لقد شهدت أمثلة على كراهيتها من قبل.. وسمعتها تصرخ وتصرخ في وجوه الذين أغضبوها.. لقد رأت حقدها الشرس وانتقامها الكريه.. وإن لم تحصل على الدور في

الأسبوعين القادمين أي قبل أن تسافر إلى برمودا، فقد تجعل حياتها جحيماً لا يُطاق.

أعادت عينيها إلى غرايس وكررت ما قالته مراراً:

ـ أشكرك كثيراً على ما فعلته من أجلي لكن لا تدعينا نختلف على هذا.. لن أنجح أبداً في دور الوصيفة.

صاح رامزي لونغ: «بل ستنجحين، إنه دور غير صعب ولهذا اقترحته لك.. أما الدور الذي ستمثله غرايس فهو مهم كثيراً.. ستلعب دور سيدة جميلة مخادعة تنوي الزواج برجل ثري في سبيل الحصول على أملاكه من أجل عشيقها.. أما دورك فسيكون فضح اللعبة ونيل العرفان بالجميل من البطل وزوجته الأصلية».

سخرت ايريس: يبدو الدور ساذجاً.. فهل من سبب محدد لأكون وصيفة من هؤلاء الوصيفات النموذجيات؟ واثقة أنك تعرف العشرات ممن يُتقن هذا الدور؟

أنجدتها غرايس بالقول: أعرف الكثيرات.

ابتسمت ايريس لها قبل أن ترتد إلى رامزي لونغ.. الذي بدا قاسياً:

ـ لا.. لقد قررت.. سيكون للوقت أهمية في إنتاجي المقبل غرايس.. وهذا يعني أن على كافة الأمور أن تسير بسهولة.. أعترف أنك مثالية للدور، ولكنك مزاجية بعض الأحيان.

احتجت غرايس ساخطة: «لست الوحيدة في هذا».

وافقها الرأي بتحفظ، ثم أضاف:

ـ سامحيني عزيزتي.. ولكنك متعبة غرايس فآخر مرة عملت بها معي تعطّل كل شيء أياماً لأن أحد المساعدين لم يعجبك.

ـ لم تكن غلطتي!

رد بجفاء:

ـ ولن تكون أبداً.. أظن أنكما ستقومان بالدور بشكل جيد لأنكما تعيشان في الواقع معاً.

بدا كلامه مبطناً بتهديد خبيث.. نظرت إليه بإمعان فلا تدري لماذا تظنه بعيداً كل البعد عن الصدق.. فرامزي لا يختار فتاة غير مدربة للتمثيل في فيلمه، إذن ما الغاية من عرضه هذا؟

سألت بعدم تصديق:

ـ تعني أنك لن توافق على أن تمثل غرايس في فيلمك إلا إذا مثلت أنا؟

نظر إلى غرايس: «نعم.. إذا كنت مستعدة للانتظار غرايس حتى تري ما إذا كانت ستغير رأيها فالأمر عائد إليك».

ابتسمت غرايس، وفي عينيها بريق تحدٍ لإيريس:

ـ واثقة أنها ستغير رأيها.

تجاهلت ايريس التحدي، وابتلعت ريقها مصممة:

ـ لن أغير رأيي.

حتى ولو كانت تتمنى أن تكون ممثلة، فلن تستطيع المخاطرة بقضاء ما قد يصل إلى عدة أشهر مع رامزي لونغ.

وصاحت غرايس بمكر:

ـ اسمعي ايريس.. سيُلتقط الكثير من مشاهد الفيلم في «ديڤون».. فإن وافقت على ما يقوله رامزي، فقد تتمكنين من إقناعه بشراء المنزل القديم الذي ورثته، أنت بحاجة إلى التقاط بعض اللقطات في منطقة المستنقعات، أليس كذلك رامزي؟

ضاقت عيناه قليلاً:

ـ قد تتحقق أمور كثيرة إن قبلت ايريس الدور.. ولكني أظنها بحاجة إلى وقت لتفكر.. أنا مضطر للذهاب الآن.. ولكنني أريد منك ومن غرايس أن تنضما إليّ هذا المساء.

ثم سمّى لهما اسم فندق شهير في الوست اند.

شعرت بأنها عالقة في فخ كبير، راقبت بصمت غرايس وهي ترافقه إلى الباب.. وسمعتها تؤكد له أنهما ستكونان هناك..

عندما عادت غرايس من مرافقة الرجل العظيم، انطلقت في هجوم مباشر:

ـ لست جادة في رفض عرضه.. ولا أظنك جادة في رفض معطف الفراء؟

شعرت فجأة بأنها أكبر بسنوات فردت بحدة:

ـ أنت من بين جميع الناس تعرفين أن العرضين سيئين عرض أسوأ من الآخر!

هزت غرايس كتفيها:

ـ ربما.. لكن مخرجي الأفلام يستمتعون عادة بالسخافة، وليس رامزي بالشخص الأول الذي أراه يعاني ضرباً من الجنون.. ومن كان في مثل مركزه يقدر على النجاة في ما يفعله، أما أمزجة الناس فلا يتسامح معها رامزي أبداً.

هزت كتفيها بمرارة وأضافت:

ـ لكن فليكن الله في عون كل من يقف في وجه نزواته!

صاحت متوترة: «حسناً.. أنا لا أنوي أن أكون إحداهن».

ـ بل أنت أسوأ.. أسوأ بكثير! فلا أصدق أنه معجب بك.. فمن يرافقنه من النساء، يعرفن ما يفعلن، وستكونين بلهاء إن لم تأخذي ما يمكنك أخذه.. يقال إنه أحد أثرى الأثرياء في مهنة التمثيل وإن له نفوذاً كبيراً، وثمة شائعة أنه على وشك التقاعد عن الإخراج، لذا قد تكون هذه فرصة العمر.

بدأت ايريس تقول بحرارة: «لا..».

ثم ترددت بحذر، فليس عليها المخاطرة بالجدال أو الخصام مع غرايس.

ـ أرجوك غرايس.. فلننتظر حتى نراه مرة أخرى.. أظنك ستجدينه قد أعاد التفكير في أمري وغيّر رأيه.. تعرفين كيف هم الرجال!

راق هذا الكلام لغرايس فتلاشى شيء من نفاد صبرها وغضبها،

وضحكت ساخرة:

ـ أعرفهم حبيبتي.. لكنني لا أعتقد أن لديك فكرة ما.. أنت مجرد طفلة بالنسبة لرامزي.. ولو شاء لحطمك بأكثر من طريقة.. لذا من الأفضل أن تفكري ملياً قبل أن ترفضي له شيئاً.

غيرت ايريس ملابسها بسرعة، وكانت تربط الحزام حول أفضل فستان قطني تملكه حين دخلت غرايس التي صاحت بشيء من نفاد الصبر:

ـ فليكن الله في عوني! هذا لن ينفع! اخلعيه فوراً!

ـ ليس لدي شيء آخر.

شعرت بالأسف على نفسها، أضافت: «لن يلاحظني أحد!»

أخذت غرايس تزن ايريس بحدة، وكأنها لم ترها بشكل ملائم من قبل.

ـ سيلاحظك أهم شخص.. أنت أنحل مني.. لكنني واثقة من أنني سأجد لك ما يناسبك.. اخلعي هذا الفستان القبيح وتعالي معي!

بعد ساعة شعرت ايريس بأنها شخص آخر.. فالفستان الذي كانت ترتديه كان جديداً تقريباً ومحتشماً بشكل عجيب، ولكن ياقته كانت مفتوحة.. عندما احتجت، تجاهلت غرايس وساوسها وقالت لها إن عليها ألا تكون سخيفة، فقد حان الوقت لتتضح قليلاً.. وأظهرت لها كيف تستغل أفضل ما في جمالها، وكانت مسرفة في مساعدتها ونصحها حتى شعرت ايريس بالخجل من الاحتجاج مرة أخرى.

قابلهما رامزي لونغ بنفسه، ورافقهما بسرعة إلى مجموعة من الناس كان يتحدث معها.. تأبط ذراع غرايس بعفوية ولكن لم يكن هناك شيء من العفوية في النظرة المتفرسة التي حدجها بها وأصبحا للحظة وكأنهما بمفردهما.

لم يتكلم.. وكان لديها إحساس غريب بأنهما وحدهما على جزيرة نائية. أحست بكل مشاعرها تتجه إليه وفجأة أحست بقلبها يخفق بسرعة.. أسبلت رموشها الكثيفة لتخفي عينيها خوفاً من أن تفضحا

مشاعرها الغادرة.

تنهد ثم ابتعد صامتاً فاحتاجت إلى قوة إرادتها كلها لتمنع عينيها عن اللحاق به.. ولكنها لم تكن بحاجة إلى النظر إليه فصورته مطبوعة في ذاكرتها: وجهه النحيل الوسيم، طوله، عرض منكبيه، ومظهر رأسه الأسود المميز..

ومع أنه لم يعرها اهتماماً كبيراً إلا أنه حرص على أن تجلس إلى جانبه خلال العشاء، ثم سألها بفظاظة عندما كانت المرأة الجالسة قربه من الجهة الأخرى تتحدث إلى شخص آخر:

ـ هل أنت مسرورة لقرارك بالمجيء؟

التقت عيناها عينيه بتمرد:

ـ لم تعطني خياراً.

حذرها بمكر:

ـ بدأت معك بالطريقة التي أنوي أن أستمر عليها. تبدين جميلة.

هل يسخر منها؟ أرادت بشراسة أن تقول له إن هذا الفستان ليس لها.. ولكن، لسبب تجهله، توسلت غرايس إليها أن لا تفعل..

قالت بغضب، ووجنتاها متوردتان، والتحدي في عينيها:

ـ سبق أن قلت لي إنني جميلة.

ـ وهل هذه طريقتك في تقبل الإطراء؟ لماذا لا تستجيبين كبقية النساء؟

تحدته بحدة وجاهدت للحفاظ على جرأتها أمام نظراته الممعنة.

ـ تريد أن أستجيب لك سيد لونغ؟ هل أنت معتاد على نساء يركعن عند قدميك؟

اشتدت عضلات فكه.. وقال مهدداً:

ـ قد تفعلين هذا يوماً ما.

سحبت نفساً عميقاً، ثم نظرت إلى ما في طبقها: لا أظن هذا.

تساءلت كيف ستتمكن من تناول طعامها وأصابعها ترتعش.. قد لا

تسنح لها فرصة أخرى لتناول عشاء في مكان كهذا.. وتمنت لو يدعها وشأنها لتستمتع بالطعام الشهي بدل الارتجاف من الإهانة الواضحة في عينيه.

رد بجفاء: «لا تكوني واثقة جداً.. على الأرجح.. قبل نهاية هذه الأمسية قد تجدين نفسك غير قادرة على الاستمرار في مقاومتي».

تساءلت مرة أخرى إلى ماذا يلمح.. هل سيبدأ يا ترى في مضايقتها بشأن الانضمام إلى فيلمه الجديد هنا؟

ردت ببرود: «عظيم أن تكون واثقاً من نفسك هكذا».

سألها فجأة:

ـ لماذا لم تقبلي الهدية التي قدمتها لك؟

ردت برقة: أرجو أن يكون المحل الذي اشتريتها منه قد وافق على استعادتها؟

ـ ليس هذا برد على سؤالي.

نظرت إليه ساخطة غير عابئة بمن قد يلاحظ نظرتها:

ـ أتريد حقاً أن تعرف سيد لونغ؟

كشّر أمام عدوانيتها:

ـ لو كنت مكانك لما حاولت أن أُظهر نفسي مثالاً للعفة خاصة وأنت تعيشين مع امرأة مثل الآنسة ويللي.

كادت ايريس تختنق.. وردت بحدة:

ـ أستغرب أن تتنازل وتدعونا إلى هنا؟ ألست خائفاً أن نلوث أصدقاءك الرائعين؟ فلأرَ.. ألم أسمع بينهم ثلاثة ألقاب شرف؟

ـ بلى.. إنما لا شأن لهذا بالأمر.. فمعظم ضيوفي يتلقون الإعجاب بسبب عدم ادعائهم إن لم يكن بسبب شيء آخر.. وهم يحافظون على وظيفتهم ويعيشون حياة مهنية شريفة.

ـ وماذا عني؟ ألا أوحي بهذا؟

ـ لا توحين بذلك خاصة وأنت ترتدين فستاناً كالذي ترتدينه الآن..

ولا داعي لمحاولة إخضاعي بهاتين العينين الزرقاوين الجميلتين. يجب أن تكوني أكثر إقناعاً من هذا لأصدقك.

أشاحت بوجهها عنه:

ـ لن أحاول إقناعك.. أنت أسوأ بكثير مما ظننت.

رد بعدم اكتراث:

ـ هاجمي طعامك بدل أن تهاجميني.

خلال الوجبة التي بدت طويلة لا تنتهي لم تر ايريس من وجهه غير جانب فكه المشدود.. لهذا كانت شاكرة جارها الآخر على اهتمامه بها.. وهو شاب يدعى بيتر غرين بدا مسروراً بمحادثتها.. وقبل تقديم القهوة كانا قد تبادلا الأسماء وأرقام الهاتف.

عند منتصف الليل أدركت ايريس فجأة أن غرايس غير موجودة.. بعد عدة دقائق اقتربت من رامزي لونغ الذي كان يحادث شقراء رائعة، لكنه التفت إليها بسرعة، فسألته بلهفة:

ـ أتعرف أين هي غرايس؟

رد ساخراً: «لا فكرة لدي، لقد وعدتها أن أقلّك إلى المنزل.. لكنني لم أفكر في طرح سؤال عما تريد أن تفعل.. لقد كانت مع غران لايقري وأعتقد أنها ستكون آمنة».

كرهت سخريته، وصاحت:

ـ هذا كل ما أريد أن أعرفه.. أما المنزل فسأعود إليه بمفردي.. شكراً لك. أو.. ربما يستطيع بيتر أن يقلّني.

ولم تستطع مقاومة ابتسامة ماكرة ظهرت على وجهها.

لف أصابعه الفولاذية حول معصمها رافضاً الفكرة بشراسة:

ـ لا.. لن يقلّك.. تذكري أن مستقبل غرايس على المحك. قاوميني تكتشفي بالضبط ما يعني هذا.

نظرت إليه يائسة غير واثقة مما هو الأفضل للقيام به.. فرغم رأيه الشائن بغرايس كانت تعرف أنها غير سيئة.. ومن هو لينقذها؟ قد تكون

حياته الخاصة بحاجة إلى نقد أكثر من حياة غرايس.. مع ذلك لا سبيل لإنكار مقدار ما يُعتمد عليه في حقل السينما، فهو قادر على صنع ممثل أو تحطيمه بإشارة من أصابعه التي تكاد تكسر لها ذراعها.

بعد نصف ساعة، وفيما كانت جالسة في التاكسي قربه، أدركت بأن ما عليه غير التهديد لتستجيب.. مع ذلك ومع أن الفرصة سانحة لم يذكر لها مرة واحدة شيئاً عن الدور الذي يريد منها أن تمثله في فيلمه.. فكان أن اقتنعت أكثر مما مضى أنه يستخدم الدور وسيلة للوصول إلى شيء آخر.

عندما لم يطلب من التاكسي الانتظار أحست بالخوف وقالت مقترحة:

ـ لماذا لا تتابع طريقك.. سأكون بخير الآن.

دس قطعة نقدية في يد السائق ولوّح له:

ـ لأنني آمل أن تطلبي مني تناول القهوة.

قالت بحدة: «لتكرر ما حصل ليلة أمس؟»

رد ساخراً:

ـ وهل تحسبين أن كل ما أريده منك هو العناق؟

تورّد وجهها وهو يأخذ المفتاح من بين أصابعها المرتعشة، وفتح باب الشقة.. حاولت التكلم بصوت هادىء:

ـ آسفة.. لعلي مخطئة ولكن ما دمنا لا نكاد نعرف بعضنا بعضاً فماذا يمكن أن نتحدث عنه؟

ـ إن أردنا أن نتعارف، يجب أن نبدأ في مكان ما. وإذا كنت لا تؤمنين بالطرق المختصرة فالكلام هو الطريقة الأخرى الوحيدة.

شعرت بأنه يسخر منها، فكرهت هذا.

ـ ما دمت مستعداً للوصول إلى هذا المدى مع كل فتاة تلتقي بها فلا شك أنك كثير الانشغال.

هز كتفيه وقال:

ـ ليس مع كل فتاة.. فبعضهن لا يشجع الرجل على إضاعة وقته.

إنهن عادة يوافقن على كل ما يجول في خاطري.. والآن ماذا عن القهوة؟

ارتدّت إلى الوراء بتحد بارد:

ـ لا أظنك تريد القهوة سيد لونغ.

صاح: «سيد لونغ! إذا كان هناك ما يغيظني فهو رفضك العنيد أن تناديني رامزي».

وقبل أن تعرف ماذا ينوي مد يديه ليشدها إليه:

ـ قولي.. قولي اسمي.. ايريس!

ولكنها خشيت إن نادته باسمه أن ينتزع هذا منها الدفاع الوحيد الباقي لديها.. قد يكون مناداته بالسيد أمراً مزعجاً ولكنه أفضل من لا شيء.

قالت: «أفضل ألا أفعل».

وكأنما تتوسل إليه ألا يصر.

تجاهل الرجاء في عينيها الزرقاوين.. بدا عليه الانفعال وقال بهدوء:

ـ ربما يجب أن أقنعك بتغيير رأيك.

عندما كان يضمها ذعرت فرفعت يديها لتدفعه عنها.. ولكنه شدّها بلا رحمة، فوجدت أن إبعاد جبل أسهل من إبعاده.. فقد بدا مصمماً بشكل صارم وعنيداً.. بحيث لم يعد لديها أمل بمقاومته.

وعندما أصرت على المقاومة، ازداد ضغط ذراعيه بطريقة مهينة وحشية.. وخشيت من التجاوب الذي يثيره فيها بكل خبرته.. ودار رأسها.. فقد شعرت بأنها تقف خارج نفسها تراقبها تغرق في طوفان عميق من المشاعر.

ثم أصبحت حرة.. بالسرعة التي عانقها بها أبعدها عنه، تاركاً إياها في دوار. لماذا تركها هكذا بسرعة؟ ألم تستطع أن تفهم..

ابتعد ليدرس لوحة سوريالية بريشة رسام فرنسي شهير مات منذ زمن.. ولكن ايريس تشك أنه مهتم بها.

التفت إليها وحاجباه مرفوعان بتعبير قلق:

ـ بعدما قلت إنني لن أفعل، لماذا أثرتني؟

ولم يكن لديها القوة لتنكر:

ـ أنا آسفة، رامزي.

لوت ابتسامة خفيفة الفم المتزمت:

ـ حسناً.. حققنا على الأقل شيئاً.

راقبت بذهول تسلية جافة أنارت عتمة عينيه. قالت: «أوه.. فهمت».

ابتسم مجدداً:

ـ ربما حقق كلانا شيئاً؟ لقد جعلتك تنطقين اسمي.. وفي المقابل تخلصت أنت مني.

ـ تخلصت منك؟

رأى التساؤل والارتباك في عينيها:

ـ أليس هذا ما تحاولين القيام به منذ جلبتك إلى المنزل؟

تورد وجهها فصاح:

ـ لا تزعجي نفسك بالنكران.. أنا أنوي الذهاب ولكن قبل هذا أريد أن أقول إنني لم أغير رأيي بشأن إشراكك في فيلمي القادم.

غار قلب ايريس. يا لضياع الآمال التي كانت تحتضنها!.. سألته بوجه متجهم:

ـ ما زلت تريدني أن أمثل دور وصيفة غرايس؟

ـ أجل..

مرّ أسبوع لم ترَ فيه ايريس رامزي لونغ، وكانت مسرورة لهذا.. وكم أملت أن ينساها، أما هي فحاولت جاهدة أن تنساه ولكن ما إن تعود أفكارها إليه حتى تغرق في مزيج من الشوق والكره اللذين كانا يتركانها مرتجفة مرتبكة.

ثم رمت غرايس قنبلة رهيبة.. قنبلة أحست ايريس أنها كانت أفضل حالاً بدونها.. ففي وقت متأخر من أمسية يوم جمعة ولدى رجوع ايريس من العمل عند البروفسور أبلغتها غرايس أنهما ستمضيان عطلة الأسبوع مع

رامزي، وأعلنت بمكر:

ـ اتصل منذ ساعة فقط.. ودعانا إلى «لايتون» لقضاء ليلتين. وقبلت الدعوة بالتأكيد.

صاحت ايريس سعيدة لأنها ليست بحاجة إلى ابتداع عذر:

ـ لكنني لا أستطيع الذهاب! ألم أذكر لك أنني وعدت كلاري بالعمل طوال نهار الغد؟

ضحكت غرايس: «ما هذه بمشكلة.. لقد اتصلت للتو بالبروفسور وأخبرته بأنك لن تحضري. ظننت أن هذا سيوفر الوقت».

نظرت إليها ايريس بذهول:

ـ أنت.. اتصلت بكلاري؟ ماذا قال؟

هزت كتفيها بعدم اكتراث:

ـ انزعج، إنما ليس بمقدار ما كان سينزعج في ما لو تركت الأمر لرامزي.

شهقت ايريس: «لن يجرؤ على القيام بشيء».

ـ حبيبتي.. أنت لا تعرفين رامزي لونغ.

ردت بشراسة: ولا أريد أن أعرفه.. لن أذهب إلى.. إلى حيثما قلت إننا ذاهبتان.

اللعنة على رامزي لونغ! لماذا لا يتركها وشأنها؟

ـ سنذهب إلى لايتون.. مكان رائع في بيركشاير. لقد تحدثت إلى أشخاص كانوا هناك.. ستحبينه ايريس.

ـ لا أريد أن أراه!

كان صبر غرايس قد عيل.. فصاحت:

ـ يجب أن تذهبي، حلوتي.. بحق الله! كم تظنين عدد من يدعوهم إلى هناك؟ سنتال نحن الشرف حلوتي، ومن الأفضل لك أن تصدقي هذا وتنسي كل شيء آخر.

ألا تعرف غرايس أنها تطلب المستحيل؟

ردت ايريس بغضب:

ـ لا أرى لماذا نحن مضطرتان للذهاب.. لماذا لا تذهبين بمفردك؟

ـ سأفعل هذا بكل سرور ولكنه يريدك أنت.. يبدو مصمماً على إشراكك في فيلمه، وإن بقيت على عنادك خسرنا كلتانا.. وإن حدث هذا فلن أسامحك أبداً!

قالت يائسة:

ـ قد يغير رأيه!

ـ إنه أمل واه.. ولكننا ناقشنا هذا من قبل ايريس.

ـ لديه منزل في لندن.

ـ وآخر في بيركشاير، يعتني به شقيقته وزوجها، فهو لا يذهب إليه كثيراً.. فمن المعروف أنه يعيش في أميركا معظم أيام السنة.. كانت والدته أميركية كما سمعت.. وقد ترك له هذا المنزل والده الإنكليزي.

إذن فهو نصف أميركي.. وهذا ما يفسر لكنته.

ـ لو وافقت على الذهاب فسيكون هذا على أمل أن يدرك أنني غير مذهلة للتمثيل.

ـ هذا منصف.. ولكن عليك أن تكوني لطيفة، وأن تتركي مسألة تغيير الرأي له. لأننا سنواجه الجحيم إن لم تفعلي.. فكوني حذرة!

حين وصل رامزي في اليوم التالي ليصحبهما، كان يقود سيارته وبدا في مزاج رائق مع هذا الصباح البارد.

بادر غرايس التي تكبر ايريس بعشر سنوات:

ـ صباح الخير يا بنات.

ورماها بابتسامة كسولة سرعان ما تلاشت عندما التفت إلى ايريس سائلاً:

ـ هل افتقدتني؟

أرادت أن تصيح لا.. ولكنها تذكرت تهديد غرايس: طبعاً.

نظر إليها وكأنه يعرف أنه يذر الملح على الجرح: كم؟

ردت برقة مصطنعة: «لن تعرف أبداً».

أمسك ذراعها بسخرية وشدها لتقف:

ـ أحب أن أعرف.

لولا غرايس لما عرفت ما كانت ستقول له. ولكن إلى أين تذهب إن رمتها غرايس خارج بيتها؟ بذلت جهداً لتبدو جادة:

ـ آسفة رامزي.. لم ألاحظ غيابك.

ضاقت عيناه: لقد فاجأتني.

ـ فوجئت أنا أيضاً بدعوتك إذ لم أتوقعها البتة.

حاولت إشاحة عينيها عن وجهه الصارم ولم تشأ أن تعترف أنه بجسده الطويل ووجهه الأسمر كان مثالاً للرجولة.

سألها بقسوة: «ألا يعجبك ما هو غير متوقع؟ لعله لم يزعجك».

ـ لا.. على الأقل..

تنهدت تنهيدة إحباط ثم صمتت.. يجب أن تتصل بكلاري.. ففي عجلتها لتوضب أغراضها وأغراض غرايس، نسيت أمره كلياً.. وفيما كان رامزي يديرها نحو سيارته، ارتدت:

ـ هناك شيء.. يجب أن أقوم بمخابرة هاتفية تذكرتها للتو.

نظرت إليه بإغراء:

ـ إن ذهبت إلى السيارة وانتظرتني.. فلك عليّ ألا أغيب كثيراً.

* * *

إنه لمن حسن الخلق أن تتصل بكلاري.. فقد لا تكون غرايس قد شرحت له الأمر بشكل ملائم. فنادراً ما تحسن الشرح إن لم يكن لها مصلحة بالأمر وبإمكانها أن تختصر إلى حد الفظاظة، ولن تقلق إن خسرت ايريس عملها.. صدم شك رهيب ايريس، فهرعت بسرعة من المصعد إلى الشقة، والتوتر يرجف أصابعها وطلبت الرقم مرتين حتى أجاب كلاري..

قالت: «معك ايريس آسفة، لن أستطيع العمل هذا الصباح».

رد منزعجاً: «هذا ما شرحته لي الآنسة ويللي ليلة أمس».

ـ أنت لا تعرف مدى أسفي.

ـ أنت آسفة! ألا تفهمين؟ لا أستطيع العمل بدونك.

ارتفع صوتها:

ـ وأنا لن أتخلى عنك كلاري!

ليست الجنيهات القليلة التي يدفعها لها أسبوعياً كثيرة، ولكنها كل ما تتقاضاه.

أردفت: اسمع! سآتي باكراً يوم الاثنين وسأبقى طوال الليل..

دمدم: «وهل أستطيع أن أصدق هذا؟ لم أستطع قط إقناعك بالبقاء بعد العاشرة».

أجبرت نفسها على الضحك، وحاولت المزاح لترضي خاطره:

ـ هذا لأنني لم أكن أريد البقاء كلاري. لكن لكل شيء مرة أولى.. أعني، حسناً أنت تعرف ما أعني..

ـ ألن تحتج الآنسة ريللي؟

ـ لا، لن تعترض خاصة إذا شرحت لها أين سأكون.

تمتم مفكراً: «حسناً.. إذا عملنا طوال الليل قد نتمكن من إتمام شيء.. هل أنت واثقة؟»

ـ بالتأكيد واثقة فلن أتراجع عن كلامي أبداً.

ـ إلى اللقاء إذن.

ـ حتى صباح الإثنين.

أرجعت السماعة إلى مكانها وعلى وجهها ابتسامة رقيقة فقد تصورت مدى الراحة التي يشعر بها.. مسكين كلاري فهو يتضايق دائماً بسبب أو بدون سبب.

ـ ألم تنتهي؟

انتفضت.. وارتدت بسرعة فوجدت رامزي واقفاً في الباب.. عرفت من التعبير الجامد على وجهه أنه غاضب لأنها تركته منتظراً.. قالت

متوردة الخدين:

ـ آسفة.. كانت مكالمة.. شخصية جداً.

برقت عيناه وكأنه يكرهها:

ـ طبعاً.. ولكن كان بإمكانك اختيار وقت أفضل من هذا.

ـ حسناً.. فلنذهب الآن.

قال ساخراً: «إذا كنت جاهزة فلِمَ لا؟»

تنحى جانباً بكل أدب ثم أغلق الباب بحدة. شعرت بأنه يعترض على ما حصل لذا وجدت نفسها تشرح له طوعاً:

ـ آسفة رامزي.. لكن دعوتك فاجأتني.. كان لدي ترتيبات أخرى.

قال ببرود:

ـ وهل أفهم من هذا أن التفكير في قضاء عطلة أسبوع في منزل مخرج سينمائي شهير أبعد كل شيء عن تفكيرك؟

ردت بحذر: «قد يكون هذا هو السبب جزئياً..»

عندما توقف المصعد وغادره نظر إليها:

ـ جزئياً؟ ألم يخطر ببالك بأنك تتحولين إلى امرأة صعبة الإرضاء؟

ردت مستغربة ردّها:

ـ الفتيات اللواتي يراوغن هن من يصعب إرضائهن، سيد لونغ.

لم تظن أنها سترد بمثل هذا الرد.

شهق: «وهل تقولين لي شيئاً لا أعرفه؟»

ثم دفعها بلطف إلى مؤخرة سيارة مرسيدس جميلة.

وفيما كانت تبتلع ريقها بصعوبة استقرت فوق المقعد وأنفاسها تكاد تتخلى عنها مؤقتاً.. عندما يكون رامزي غاضباً، يبدو حوله شيء ما يضرب وتراً حساساً في أعماقها.

أصغت إليه وهو يتحدث بقلب مثقل بشكل غريب، أكان هو المتحدث أم كانت غرايس هي المتحدثة.. كانت ايريس مشغولة جداً في محاولة تجنب التفرس بظاهر رأسه، وعندما أحست أنه يراقبها في المرآة

أمامه توردت توردا شديداً وكأنه ضبطها تقوم بجرم، وأشاحت بوجهها تعسة.

لم يتوقفوا إلا لارتشاف قهوة الصباح.. خلال الرحلة لاذت بالصمت، لكنها لم تظن أن غرايس ورامزي لاحظا صمتها..

وصلوا وقت الغداء بالتحديد إلى لايتون وهو منزل مزرعة قديم يقع في ضاحية بيركشاير الريفية. خفّت لاستقبالهم امرأة في أوائل الثلاثين من عمرها هي شقيقة رامزي. وصاحت بأخيها:

ـ هذا أمر رائع! لم أتوقع أن أراك هنا قبل سفرك إلى أميركا رامزي.. دهشت حين اتصلت سكرتيرتك تخبرني بقدومك.

سرعان ما تبعها ثلاثة أولاد وكلبان.. فضاع ما كان سيقدّمه رامزي من تفسير في خضم الأصوات المرتفعة وقال متجهماً:

ـ كارلاين.. ألا يمكن أن تسيطري عليهم؟

عبست كارلاين، ثم شرحت له:

ـ تسرّح أغنيس شعرها في «نيوبوري» ووعدت أن أرعاهم ساعة.. تعرف كيف.

صاح: «لا.. لا أعرف كيف.. أين الخادمتان؟»

ضحكت كارلاين: «أوه.. لا تهتم بهذا..».

والتفتت إلى غرايس وايريس، وعرّفها إليهما.

قالت: أرجوكما لا تهتما بأخي السيء الطباع، فهو لا يتذمر كثيراً عادة.

استمع رامزي إليها مرفوع الحاجبين، فتعجبت ايريس في سرها من حبّه للأطفال.. فقد التفوا حول ساقيه، أما الصغرى التي لا يتجاوز عمرها الأربع سنوات فطالبت بأن يحملها.. تنهدت الصغيرة تنهيدة استسلام ثم عقدت ذراعيها النحيلتين حول عنقه وقبلته.

هزت كارلاين كتفيها: «أرأيتما ما أعني؟»

ودخل الجميع إلى المنزل.. وكارلاين تقول:

ـ سيأتي زوجي بعد وقت قصير.. طرأ ما اضطره للذهاب.. لكن إن صعدتما إلى الطابق العلوي قبل الغداء فسيكون هنا حين تنزلان.

قال رامزي بجفاء:

ـ كان يجب أن نتناول الغداء قبل وصولنا نظراً للحالة هنا.

قالت كارلاين بصراحة وهي توصلهما إلى غرفتيهما:

ـ لم أر رامزي نزقاً كما الآن، للأولاد جناحهم الخاص ولا يراهم الزوار عادة. لا.. أظن أن شيئاً يشغل باله.

أذهلتها هذه الصراحة التي لا يمكن أن يوافق رامزي عليها، لم ترد ايريس ولكنها سمعت غرايس تقول إن الفيلم الجديد هو السبب ربما.

ـ ولديه أمور كثيرة تشغل باله وتفكيره.

نظرت إلى ايريس حاقدة.

هزت كارلاين رأسها..

ـ ربما، لكن الفيلم ليس للوقت الحاضر.. فهو مسافر إلى أميركا في الأسبوع القادم ولعله يجد هناك حلاً لما يزعجه وهذا ما آمله فأنا وزوجي كيم مسافران معه.. وكذلك الأولاد.. لكن الرحلة لن تكون كما يجب وهو في مزاج سيء.

سرّت ايريس بعدما أوصلتها كارلاين إلى غرفة أخرى وتركتها.. فصراحة كارلاين راقت لها، لكنها وجدت أن فيها مبالغة..

أجفلها قرع عنيف على الباب الذي لم تتم إغلاقه بعد. ولأنها ظنت أن كارلاين نسيت شيئاً، نادتها أن تدخل.. لكن الطارق كان رامزي إذ فتح الباب ودخل.

نظرت ايريس إليه دهشة، فدخوله هكذا بدا وكأنه يغير علاقتهما جذرياً. وبدأ قلبها يخفق بقوة بحيث لم تستطع الكلام.

سألها:

ـ ألديك كل ما تريدينه؟ قبل أن نغادر المقهى حيث تناولنا القهوة اتصلت بكارلاين وطلبت منها تجهيز هذه الغرفة لك.. إنها تجاور

غرفتي، واعتقدت أنك ستستمتعين بالمناظر.

تلعثمت قائلة: «آه.. أجل. لم يتسنَّ لي الوقت لأنظر من النافذة ولكن الغرفة جميلة.. شكراً لك. كنت أهم بغسل وجهي قبل الغداء».

لم تفارق عيناه وجهها ولكن لم يكن في نظرته لطف:

ـ سأرسل خادمة لتفرغ لك ثيابك.

تورّد وجهها وهي تفكر في الثياب القليلة الرخيصة التي جلبتها معها:

ـ أوه.. لا.. أستطيع تدبر أمري.

تجاهل احتجاجها ودنا خطوة سريعة منها. ثم توقف فجأة ودسّ يديه في جيبي سرواله.. ثم سحب نفساً عميقاً فتمددت عضلات صدره من تحت قميصه.. مرة أخرى شعرت بأنه يتصارع مع الغضب البارد، وهذا ما جعلها تعسة..

بعدما تبادلا النظرات تكلم:

ـ إذا كان هناك ما تريدينه فاطلبيه مني، أريد منك أن تعديني بهذا.

تململت تحت نظرته العميقة:

ـ واثقة أنا بأنني لن أحتاج إلى شيء لم توفره لي.. منزلك مريح رامزي.

سأل بصوت أجش فيه لهفة: وهل أعجبك؟

وكأنما ردها مهم له..

ردت: «من الصعب أن لا يعجبني».

دنا منها حتى أصبح على مقربة شديدة منها، فحاولت الابتعاد.. بدا لها ثانية وكأن تياراً كهربائياً يربط بينهما، وهذا ما جعل ساقيها غير قادرتين على الحراك.. نظر إلى خطوط وجهها الملهوفة وسأل عابساً:

ـ هل ذكرت كارلاين ما أزعجك؟

شهقت: «بالطبع لا.. شقيقتك في غاية اللطف».

ـ وهي تقبض أجرها لتكون لطيفة.

انتزعت بصرها من عينيه.. إن هذا لمثالي منه! رامزي لونغ متأكد أنّ

بالإمكان شراء كل شيء بالمال.

ـ مهما يكن فأنا أقدّر لها لطفها.

رد ساخراً: «آه.. أجل.. لقد نسيت كم يمكنك تقدير الأشياء».

نظرت إليه بسرعة، فعرفت أن في كلامه أكثر مما هو ظاهر ولكن قبل أن تتحداه ارتد على عقبيه تاركاً إياها وهو يقول:

ـ أراك في الأسفل ايريس. بعد الغداء سأريك سائر أرجاء المنزل والأرض المحيطة به.. فمن يدري، قد تضطرين لقضاء وقت طويل هنا في المستقبل القريب.. ثم هناك عملك الجديد الذي علينا مناقشته.

ـ تعرف شعوري نحو هذا رامزي.

ابتسم متجهماً:

ـ لا داعي للقلق.. سأخصص نهاية الأسبوع كلها لتغيري رأيك.

ما إن غادر، حتى وصلت غرايس.. فصاحت ايريس بعفوية:

ـ أوه.. لا! إن لم تمهلوني دقيقة فلن أتمكن من الاستعداد.. كل ما أريد هو أن أغسل يدي ووجهي.

ـ تابعي إذن ولا تهتمي بوجودي.

غاصت غرايس في أقرب مقعد، وأردفت سائلة:

ـ ماذا يفعل رامزي هنا؟

ـ وهل رأيته؟

ـ لا تبدي هذه الدهشة.. كدت أصطدم به ولم يلحظ وجودي.

لا جدوى إذن من الإنكار. تنهدت ايريس:

ـ أراد أن يتأكد بأني مستريحة، ثم استغل الفرصة ليهددني مجدداً.

ـ إذن لا داعي إلى تهديدك بنفسي.

وقفت غرايس متثائبة وسبقت ايريس في الخروج من الغرفة.

ظهر زوج كارلاين، كيم ماونت، وقت الغداء. كان رجلاً هادئاً، حوله جو من الكآبة فظنت ايريس أنه غير سعيد في حياته.. لكنه كان لطيفاً لبقاً، وبدا على وفاق تام مع رامزي.. وأبدى لطفاً كبيراً تجاه غرايس،

فوجدت ايريس أن انطباعها الأول عنه خاطىء. كان جالساً بعيداً عن زوجته ولكنه بدا مسترخياً، وكما اعتقدت ايريس كارلاين بحاجة إلى من يتحملها كثيراً فهي متكبرة كأخيها.

بعد القهوة، حين أعلن عن نيته في أخذ ايريس بجولة حذرت كارلاين أخاها:

ـ لا تتعبها كثيراً.. تذكر حفلة العشاء.

عندما لاحظت نظرة ايريس إلى غرايس، تابعت أن الآنسة ويللي وافقت على المجيء للمساعدة على افتتاح سوق خيرية خريفية.. فسيسعد الجميع بها لأنها معروفة كثيراً، خاصة بعد تمثيلها دوراً مهماً في مسلسل تلفزيوني انتهى عرضه منذ وقت قريب.

أمسك رامزي بذراعها وأبعدها بحزم عن الآخرين.. عرفت أنها ستستمتع بالمسير معه في أملاكه ولكن ما إن يبدأ في إقناعها بالتمثيل، حتى تتلاشى سعادتها.

ولكنه لم يتطرق إلى الموضوع حتى أنهيا جولتهما في معظم أنحاء الأملاك.. كانت الأملاك رائعة، وقد رأت أنه ينتظر منها أن تكون متأثرة. المنزل نفسه كبير واسع بشكل محبب، وجناح الأولاد مستقل كلياً عن أجزائه الأخرى.. وهز كتفيه شارحاً:

ـ إنها فكرة كارلاين لا فكرتي.. مع أنها تحاول إعطاء الانطباع المضاد، ولكنها تحب أن يكون الأولاد في مكان بعيد حيث لا يراهم أو يسمعهم أحد.

ذكّر هذا ايريس بوالديها فانتفضت.

لأنه ظنها دهشة من تصرف أخته البعيد عن الأمومة، أردف رامزي:

ـ إن تزوجت يوماً فسأرغب في الأولاد أيضاً.. لكنني أريدهم حيث أستطيع أن أراهم وأسمعهم.

وافقته الرأي قائلة:

ـ يجب ألا تبعد الأولاد عن ذويهم.. وأنا أيضاً لا أحب هذا..

وأتمنى أن أنجب ولدين.. ومن حسن الحظ أن الزوج العادي المستوى لا يستطيع تأمين منزل يمكن فيه إبقاء الأولاد بعيداً عن الأنظار.

ـ ألن تتوتري إن حملت طفلاً في أحشائك؟

تجمّد وجهه فجأة وبدا حاقداً جداً، فشعرت ايريس بارتباك لا تعرف له سبباً.. لكنها أحست كذلك بكراهية لبحث مثل هذا الموضوع الحميم، لذلك تلعثمت في الرد:

ـ أعتقد أنني سأكون متوترة قليلاً.. فلا شك.. أنها.. تجربة كبيرة.

قال ساخراً:

ـ تجربة؟ هذا ما تشغلين نفسك بجمعه كما أعتقد؟

ولماذا يظن هذا؟ كانت أفكاره تتلاحق حتى شعرت بأنها غير قادرة على ملاحقته.. ولم تحاول الفهم، بل ردت فقط: ولِمَ لا؟

فليحترق قليلاً.. ما تفعله بحياتها الخاصة شأن خاص بها.

أخرجها بصمت حيث بركة السباحة الضخمة. عندما نظرت إلى وجهه الذي ما زال متجهماً شعرت بأنه يتمنى لو يحملها ويرميها في الماء.. ابتعدت بسرعة.. كان هناك ملاعب تنس ومساحات واسعة من الأرض فيها مروج خضراء وشجيرات شائكة..

سألت: «وهل ستعيش أختك وزوجها هنا دائماً؟»

ـ تحب كارلاين هذا ولكن كيم مصمم على العودة إلى أميركا.. لقد جاء إلى هنا فقط ليرضيني. في الوقت الحاضر يناقشان المسألة، وأعتقد أنهما في النهاية سيعودان إلى هناك بشكل دائم.

ـ الأولاد محبوبون.

ـ أجل، وأعتقد أن من الأفضل أن يستقروا قبل أن يشبّوا.

ما قاله الآن وملاحظاته في المنزل يؤكدان اهتمامه بالأولاد..

قالت متأسفة:

ـ أرجو أن أراهم كثيراً في أثناء وجودي هنا.

ـ لكنني أفضل أن تصبي اهتمامك عليّ.

قال هذا بحزم وكأنه على وشك الخوض في الموضوع الذي تتخوف منه..

سارعت تقول:

ـ وهل ستعيش فترات طويلة هنا؟

فاجأها بالقول:

ـ أفكر في هذا.. بعد فيلمي التالي أفكر في التقاعد وفي التأليف.. وما هذه بمجرد فكرة.. فلدي أربعة كتب منشورة حتى الآن.. ولكن لم يكن لدي الوقت لأتفرغ للتأليف.

ـ آسفة.. لم أقصد القول إنك غير جاد.. لكنني ظننت أن الأفلام أهم عندك من أي شيء آخر.

نظر إليها ببرود وجدته مثيراً للاضطراب:

ـ كان. لكنه لم يعد كذلك.. تغيرت أمور كثيرة إنما ليس نحو الأفضل كما أراها، لكن هذا هو الواقع.

كيف يتوقع منها أن تفهم ما هو غير قادر على فهمه؟ ثمة أمر واحد واضح وأحست بقلبها يشرق بالراحة.

ـ إذن ألن يكون لهذا الفيلم الأخير أهمية كبيرة؟

رد بحدة: «بل سيكون له أهمية.. أنا أؤمن بالكمال ايريس.. وأحب أن أتقن كل عمل أقوم به».

سحبت ايريس نفساً عميقاً، وأجبرت نفسها على التجرؤ. حاولت لساعات تجنب الموضوع وتعرف الآن أنها لن تتحمل المزيد.

ـ بكل تأكيد لن يكون مهماً ما إذا شاركت أنا في الفيلم أو لم أشارك به.. خاصة وهو فيلمك الأخير.

رد ببطء بدا متعمداً:

ـ بل يهم كثيراً ولولا ذلك لما سألتك.

ليتها لم تسأل، حاولت بسرعة تغيير دفّة الحديث.

ـ ألن تفتقد لكل الحركة؟ إذ سيختلف كل نمط حياتك.

رفع حاجبيه: «العيش هنا؟ لا أنوي أبداً أن أكون منعزلاً.. بل أتوقع أن أواظب على السفر.. فمن يعلم قد تكونين مستعدة للمجيء معي أحياناً؟»

تنهدت ايريس.. فعندما يتكلم هكذا لا تأخذه على محمل الجد.. حاولت مرة أخرى أن تنكر لنفسها أنها بدأت تقع في حبه.. قد يكون بينهما شيء ما ولكنها تشك أن يكون حباً.

قال بخفة: «تعالي».

رافقها إلى غيضة أشجار خضراء تقع على بعد بادرات من المسبح.

ـ إن كنت غير راغبة في فنجان شاي، فلنجلس ولنتحدث قليلاً.. وأعدك بألا أغازلك.

تعالى اللون الوردي إلى وجنتيها، لكنه دفعها إلى العشب الخريفي الجاف الذي تطايرت منه عدة حشرات انزعجت من وجودهما.. كانت أشعة الشمس تتسلل من بين الأغصان وكان الجو دافئاً.

تمتم رامزي كاسراً الصمت:

ـ كما يقول الشاعر: انتهى صيفكم الإنكليزي.

ابتسمت، وراحت تنظر إلى ما حولها بإعجاب:

ـ يستمر أحياناً فترة طويلة.. لكننا غير مضطرين للبقاء هنا طويلاً.

ـ إذا كنت قلقة بشأن حفلة عشاء كارلاين فلا تخافي لأننا سنعود قبل الموعد بوقت طويل..

أسند نفسه إلى مرفقه وراح ينظر إليها:

ـ لقد جئت إلى لايتون لأهرب من مثل هذه الأشياء لكن كارلاين لا تتعلم أبداً.

ـ ربما تجد الحياة هنا مملة، وقد تجدها أنت مملة إذا جئت لتعيش هنا دائماً.

هز رأسه مفكراً: «لكنني أحبها هكذا وأحتاجها.. هل تجدين الريف مملاً ايريس؟»

ـ لا . . بل طالما أحببته . . فالمدرسة التي ذهبت إليها كانت محاطة بمروج خضراء، وكنت أفضل قضاء إجازاتي هناك بدل لندن.

ـ لكنك لم تعودي تلميذة.

أحست أنها كشفت له الكثير عن نفسها، فغيرت دفّة الموضوع:

ـ أوه . . أجد في المدينة ما يعوضني عن هذا الجمال . . في لندن أشخاص كثيرون على استعداد لمساعدة فتاة على الاستمتاع.

رد بتجهم لا داعي له في رأيها: «أتصور هذا»

لا شك أنها ممثلة ممتازة لأنه يصدق كل ما تقول. وكأن إشارة ما تبودلت بين تفكيرها وتفكيره، إذ هزّ كتفيه وبدأ يقول لها ما ستكون عليه حياتها إن انضمت إلى شركة أفلامه، وأصبحت ممثلة . . بدا ذلك مثيراً للاهتمام فالدور الذي خصّها به لا يحتاج إلى قدرات خلاّقة . . ولكنها هزّت رأسها رافضة، فسارع يقول: «انتظري حتى الغد».

كانت دهشة لأنه منحها الكثير من الوقت ولأنه ما زال يسعى لتوافق ولكنها شعرت بالخزي لأنها تتملص منه بطريقة جبانة. كيف تشرح له أنها تفعل كل هذا من أجل غرايس؟ لن يفهم أبداً . .

أمسك خصلة من شعرها الحريري ولفها عدة مرات حول إصبعه ثم قال واعداً:

ـ سأعتني بك . . ولن تكوني تحت رحمة أي رجل يُعجب بك . . وسأتأكد أن تكوني آمنة.

وكم يعني هذا من أمان؟ خفق قلبها وتسارعت نبضاته فنظرت إليه، السؤال مقروء في وجهها.

ضحك رامزي، فرأت في ضحكته النصر النهائي.

ـ بمقدار ما تريدين أن تكوني آمنة.

ـ اسمع . . أي نوع من الأدوار تطلب مني أن أمثله؟

ابتسم بمكر:

ـ أوه . . هيا الآن . . بالتأكيد لا تظنين أنني سأذهب إلى هذا المدى من

أجل إغواء فتاة؟

ـ لا أستبعد عنك شيئاً.

تنهد، عيناه تلمعان سخرية:

ـ آه . . أحب أن أكون أول رجل في حياتك ايريس. ما قولك بهذا؟

حاولت عدم تعكير الجو بالمطلق:

ـ أخشى ألا تستطيع . . لقد وعدت شخصاً آخر بهذا.

لكن . . من؟ أذهلها ما تقوم به من خداع، وحاولت بجنون أن تخترع اسم رجل لتذكره إن سألها عنه رامزي. ولكن لحسن الحظ لم يسأل . . ويبدو أن شعلة الإلهام نجحت تماماً أكثر مما توقعت إذ نظر إليها رامزي بكراهية حقيقية وكأنه صدق كل كلمة قالتها.

ثم قال بصوت حازم:

ـ ما زال أمامك فرصة لتغيري رأيك.

عادا صامتين إلى المنزل . . . في أثناء الطريق شعرت بأنها ترغب في المزيد من صحبته ولكنها رغبة جاهدت أن تتجاهلها.

ولأن الأمسيات كانت قد بدأت تبرد، جلبت ايريس معها تنورة مخملية طويلة ارتدتها هذه الأمسية مع بلوزة مناسبة. قبل النزول إلى الأسفل، سرّحت شعرها حتى انسدل في موجات بنية على كتفيها المستديرتين، وزينت وجهها بعناية. وعندما انتهت شعرت بالرضى التام . . رأت أنها تبدو رائعة.

قبل أن يصل أحد من المدعوين، شرحت كارلاين أنها حفلة عشاء كان رامزي قد نجنبها قبل الآن . . وأن معظم القادمين اليوم تلقوا الدعوات هذا الصباح، وأنها قامت بذلك بعدما اتصل بها رامزي ليقول إنه قادم، وأنهت كلامها:

ـ ولا يمكن لمعظمهم أن يتصور ما هو أكثر إثارة وتألقاً من مقابلة مخرج سينمائي حقيقي.

تأوه رامزي وقال مهدداً:

ـ في المرة القادمة . . لن أقول لك إنني قادم .

ردت ممازحة :

ـ إن بقيت كيم وأنا في أميركا كما ننوي، فلن نكون هنا . وسيكون لديك عذر لتجنب استقبال أحد .

نظر إلى ايريس ببراءة ظاهرة :

ـ إلا إذا وجدت من يقوم بهذا نيابة عني . . قد أجد لنفسي مضيفة منزل ولو مؤقتة .

ردت ايريس وهي تقول بصوت أقل من الهمس :

ـ لا تعتمد عليّ .

تقدم إلى حيث تجلس وجلس على ذراع مقعدها .

ـ لا يستطيع الإنسان العيش بدون أمل .

لم يبدُ نادماً على استمراره في الأمل لا في المساء ولا في الصباح التالي، حين جاء إليها في غرفة نومها، تلحق به ابنة أخته، وأخويها الصغيرين . . لم تشعر أنه هناك حتى سمعته يناديها، ثم قال لها إن عليها أن تنهض من السرير لأنهم جميعاً ذاهبون بغية السباحة .

اعترضت قائلة : «لكنني لم أجلب معي ثوب سباحة . . أفضل البقاء هنا» وجلست في السرير، فبدت كطفلة لأنها لم تهتم بإخفاء تثاؤب الضجر . . ابتسمت له من عينين شبه مقفلتين من النعاس .

سألت الفتاة الصغيرة :

ـ هل ستأتي معنا خالي رامزي؟

ضم سؤاله إلى سؤال الصغيرة :

ـ هل أنت آتية؟

نفد صبرها لاضطرارها إلى تكرار قولها :

ـ ليس لدي ما أرتديه!

ـ استعيري ثوباً من غرفة الملابس قرب المسبح . . فصديقات كارلاين يتركن أثوابهن دائماً هناك . . وأظنها بين حين وآخر ترسل حملاً

منها إلى مزاد خيري محلي .

ـ سأذهب إن خرجت .

ـ وهل يجب أن أخرج؟

ردت ساخرة : «من أجل الأولاد سيد لونغ» .

وتعجبت من نفسها لأنها تعبث مع رجل لا يعجبها .

كان المسبح دافئاً . ارتدى رامزي شورتاً أسود اللون، وأحست ايريس بعينيها تتسمران عليه وهو يدنو منها . . لم تكن مستعدة لتأثير طوله وتناسق جسمه، فاتسعت عيناها بعجز جعل خديها يتوردان خجلاً . . سحبت أنفاسها بصعوبة وترنحت فخطت لا إرادياً إلى الوراء خطوة جعلتها تقع في المسبح .

سمعت صوت طرطشة ماء وأحست برامزي إلى جانبها مع أنها لم تره .

سأل ببرود عدواني : «ما الذي جعلك تقعين هكذا؟»

وكأنه لا يعلم! ارتجفت بيؤس وراحت تمسح الماء عن وجهها وعينيها . . وعندما لمست ذراعها صدره المبلل ارتدت إلى الوراء مجدداً، وقالت هامسة :

ـ لم أدرك أنني قريبة من الحافة هكذا .

نظر إليها بثبات وفمه يلتوي بتسلية خفيفة لأنه لاحظ ارتباكها :

ـ أعرف ما بك . . أنت بحاجة إلى شاي الصباح، تعالي .

أمسك يدها بحزم وشدها إلى خارج المسبح :

ـ فعلت خيراً عندما طلبت الشاي قبل أن نخرج فها أنا ذا أرى إحدى الخادمات تحمله إلينا .

* * *

٣ ـ ليلة الضياع

كانت ايريس شاكرة كل ما يجعلها تشعر أنها أفضل حالاً، استمتعت بالشاي الساخن والبسكويت بحيث مالت إلى إطالة الوقت في تناوله، وقنعت بالجلوس للإصغاء إلى ثرثرة الأولاد.

كان واضحاً أنهم يحبون خالهم كثيراً.. وصبره عليهم يشير إلى أنه يبادلهم المحبة.. فكرت ايريس في هذا وهي تسبح، إنه ذو شخصيتين متباعدتين.. الجانب الدافىء هو ما تراه عائلته منه.. أما الجانب القاسي الذي لا يرحم فيبرزه الجانب العملي من حياته.. وستكون حمقاء إن ظنت أنه شخص عديم الشعور.. لكن هذا ما لا تريد أن تفكر فيه.

بعدما اجتازت المسبح سباحة عدة مرات، خرجت منه ولعبت مع الأولاد أما رامزي فأخذ دوره بالسباحة.. فلا يمكن ترك الأولاد بدون أن يشرف عليهم أحد. ولكن رامزي أعلن في النهاية أن الفطور سيفوتهم إن لم يسرعوا..

في غرفة الطعام نظر رامزي إليها مفكراً:

ـ تبدين شغوفة بالأولاد ايريس؟

كانت تتناول الطعام بجوع فلم يمهلها جوعها لتفكر في الرد:

ـ أجل.. كنت بارعة في معاملة الصغار في المدرسة.. ربما كان يجب أن أتدرب على العناية بالأولاد أو الاتجاه إلى التعليم. ما زلت قادرة..

قاطعها: «هذا إذا!»

ـ إذا.. أوه، فهمت.. إذا استطعت ترتيب حياتي بشكل ملائم.. لقد فكرت في الأمر ولكني لن أجد الحرية الكافية إن عملت مربية.

ـ والحرية مهمة لك؟

بدا غاضباً وبارداً، ووجدت نفسها ترفرف عينيها في وجهه.. كيف تفهمه الأمر بدون الخوض في تفسير طويل ممل؟

ردت بعدم اهتمام:

ـ أوليست مهمة لكل إنسان؟

اشتد ضغطه على فمه: «وماذا عن والديك؟»

ـ نادراً ما أراهما.

ـ وتشعرين بالحزن على نفسك لهذا السبب؟

ـ لا!

لكنها توقفت قليلاً عن تناول طبق البيض واللحم الشهي، ولم يبدُ أنه لاحظ عبوسها.

ـ وتعتبرين هذا الجواب المختصر مقنعاً؟

أحست بالإدانة في صوته، ولكنها وافقت: أحياناً.

وفكرت في الزيارة الأخيرة التي قام بها أمها وزوجها، تذكرت أنهما كانا يتشاجران طوال الوقت بصوت مرتفع متجاهلين وجودها، مع إنهما جاءا ليرياها.. ولكن ذلك حدث منذ سنة أو أكثر، وكانت وقتذاك في الثامنة عشرة.. منذ ذلك الوقت كبرت كثيراً بحيث لم يعد يؤلمها هذا..

أطبق رامزي فمه بشدة وكأنه يكبت انتقادات حادة أخرى.. وسكب لها القهوة ومرر لها التوست والمربى.. قائلاً بشكل مبهم:

ـ طالما شعرت بأن الفتاة العصرية تكبر قبل أوانها. هل فكرت يوماً في فرد جناحيك والخروج لمشاهدة العالم؟

مسحت الزبدة الذهبية فوق قطعة توست ساخنة:

ـ يجب أن أجمع بعض المال أولاً.. في الوقت الحاضر لا أكسب ما يكفيني لتحمل نفقات منزل خاص بي حتى ولو بمشاركة شخص آخر.

ـ آه.. هذا! هدف الشباب الأسمى.. الاستقلال التام، والمساواة بين الجنسين.

ـ حسناً.. هناك ما هو أسوأ بكثير من هذين الهدفين.

قال ساخراً: «ولكنها جميعها تشحب أمامهما.. صدقيني.. أنا أرى أن تمثيلك في فيلمي سيكون بداية جيدة لمغامراتك، فمنه ستكسبين خبرة وسأكون موجوداً لحمايتك».

ـ لا.. لا.. شكراً لك.

تلاشت شهيتها للطعام فجأة، فوضعت آخر قطعة من التوست بعيداً.. لماذا يعود دوماً إلى هذا الموضوع؟

أردفت: «أنا آسفة».

كانت تنوي الانتظار.. لكنها أحست فجأة بالسقم من هذا الخداع.. حاولت النظر إلى عينيه بشجاعة:

ـ لا فائدة.. ويجب أن نتقبل هذا.. لا أريد أن أكون نجمة سينما رامزي.. ولا أستطيع الاستمرار في التظاهر أكثر من هذا. وأعتقد أنك لن تفكر بقول شيء لغرايس حتى الغد؟

ـ ولماذا حتى الغد؟

ابتلعت ريقها متوترة:

ـ حينما تتكدر غرايس تصبح صريحة بشكل محرج.

ـ وهل يزعجها أن تفتش عن عمل في مكان آخر؟

ارتجفت ايريس لا إرادياً: «بشكل رهيب!»

ـ سأنتظر طبعاً.. إذا كان هذا سيسعدك.

هزت رأسها ببطء وعيناها المرتبكتان لا تفارقان وجهه الساخر..

ماذا ستقول غرايس حين تسمع أنها لن تحصل على الدور؟ نعم هناك أفلام أخرى واستعراضات.. لذا لن تشكل خيبة أمل واحدة نهاية لحياة غرايس المهنية خاصة وغرايس معتادة على خيبات الأمل..

بعد الفطور خرج رامزي ليركب الخيل مع كيم.. لكن بقية اليوم

خصصه لأخته ولضيفتيه.. شعرت بأن غرايس تزداد فضولاً مع مضي الوقت ولكن ايريس بذلت جهدها لتتجنبها، ولم يكن هذا أمراً صعباً بسبب وجود رامزي دائماً بينهما.

بعد العشاء فاجأ الجميع، حتى ايريس نفسها عندما أعلن أنه خارج مع ايريس إلى المطعم لتناول القهوة، ونصحهم بعدم الانتظار لأنهما قد يتأخران ثم ابتسم لها مردفاً:

ـ نحن الاثنان فقط.

أحست بشكل غامض بأنه يحاول الإيحاء بأنهما مهتمان ببعضهما بعضاً.. واستطاعت أن ترى أن غرايس تود مرافقتهما. ولكن رامزي لم يدعها.

لم يكن لديها فكرة عما يريد مكالمتها.. أسرعت تحضر معطفها.. ولكنه لم يحاول التحدث إليها بشيء حتى جلسا في قاعة استقبال فندق فارغ تقريباً، على بُعد عدة أميال من منزله.

بعدما طلب القهوة انتظر حتى قدِّمت لهما وكان حتى هذا الوقت يتفرس في وجهها الكئيب.. فكرت لماذا يستطيع التأثير فيها بسهولة.. تعرف أنه يدرك مدى تأثيره فيها، ويفعل هذا في بعض الأحيان متعمداً.

أخيراً أشفق عليها، وقال:

ـ إذا كنت لا توافقين على تمثيل دور وصيفة غرايس في الفيلم.. فهل توافقين أن تكوني مربية أطفال كارلاين في رحلتنا إلى أميركا؟

أذهلها هذا الاقتراح فصمتت كالخرساء.. رحلة إلى أميركا! إنها فرصة رائعة.. لكنها تعني رؤية رامزي على الدوام.. إن اقتراحه خطر بحد ذاته لذا من الأفضل ألا تفكر فيه.. ثم هناك كلاري.. كيف تتخلى عنه؟

غضت طرفها لأن نظراتها تكاد تعلق في نظراته إلى الأبد.. ترددت بقلق قبل أن ترفض:

ـ لا أصدق أنك جاد، لا أصدق.

ثم ضحكت ضحكة قصيرة متوترة فضحت حالة ارتباكها.. وعادت إلى الصمت.

التوى فمه بنفاد صبر:

ـ ما كنت لأقترح هذا عليك لو لم أكن جاداً.

عبست: «لا.. أعتقد هذا.. لكن لماذا أنا؟»

ـ ولماذا لا؟

راحت تنظر إلى فنجان القهوة واللهب يتصاعد منه، وأحست بأنها غير قادرة على رفعه إلى شفتيها.. ولم يكن لديها فكرة كم تبدو جميلة هذه الليلة، فقد بدت بشعرها البرّاق وبشرتها الشاحبة كلوحة جميلة ألوانها فاتحة.. سمعت الرجل إلى جانبها يسحب أنفاسه بصعوبة.. ولسبب مجهول عادت عيناها إلى وجهه ثم قالت بصعوبة:

ـ أعرف أنك ستعتقدني مجنونة إن رفضت هذه الفرصة. لكنني مضطرة.. فلدي التزامات، وعود يجب أن أفي بها.

ارتفع رأسه بحدة فازداد ارتباكها.. ثم رأت نظرته الضيقة تطوف بعيداً وقد بدا وكأنه يركز على جماعة من الناس تخرج من المطعم ولكنها عرفت أنه لا يراهم.. ابتلعت ريقها:

ـ ليس.. من المهم أن أذهب.. أليس كذلك؟

التوى فمه بسخرية حزينة، ونظر إليها مجدداً:

ـ ربما يجب أن أشرح لك الأمر أكثر، إذا كنت قادرة على استبعاد التزاماتك في الوقت الحاضر؟ أنا أنوي السفر مع كارلاين وكيم والأولاد بعد ظهر الغد.. لدي هناك منازل وعدة شقق.. وستعيشين في ترف ولن يكون عليك القيام بأمور كثيرة.

ـ لكنك طلبت أن أذهب كمربية للأولاد.

ـ حتى نصل إلى هناك سيكون هذا عذراً جيداً لوجودك معنا.. في الواقع المربية الحالية ستترك العمل، فقد قررت كارلاين وكيم البقاء في أميركا بشكل دائم.. ولكن كارلاين رتبت أمر استخدام مربية أخرى

هناك، وهذا يعني أن عليك فقط تقديم المساعدة أحياناً.. وقد تكون فرصة لك لتعرفي إذا كانت مهنة الاعتناء بالأولاد تروق لك.. ومهما يكن، ستبقين هناك شهراً على الأقل.. فأمامي برنامج حافل يجب أن أنهيه قبل أن نعود.. لكنني لن أكون مرتبطاً بشكل كامل وسأتأكد بنفسي من حصولك على وقت رائع.

شعرت بأنه كلما تحدّث عن الأمر، كلما ازداد ألمها، ولكنها لم تدرِ لماذا..

احتجت بضعف:

ـ لا تتوقع من أحد أن يسافر بمثل هذه السرعة! يجب أن أعود إلى لندن.

ـ ليس بالضرورة. لن تتمكني من هذا قبل السفر.. سنذهب إلى لندن إنما للحاق بالطائرة فقط.

قفزت ايريس واقفة كالمجنونة:

ـ لا.. لا.. كفى أرجوك كفى! هذا مستحيل، كما.. أني لا أريد السفر.

امتدت يده تمسك بمعصمها أمّا عيناه فكانتا متقدتين من الغضب.

ـ بل تريدين.. أي شيطان يستحوذ عليك ايريس؟ إن هذه الرحلة فرصة العمر بالنسبة لأية فتاة.

لماذا تعود كلمات غرايس إلى ذاكرتها: لن يطلب رامزي لونغ منك العيش معه أو الزواج بل سينتظر حتى تقعي بين ذراعيه.. كانت غرايس تعرف عما تتكلم ومن الأفضل أن تتذكر هذا!

ـ أنا آسفة سيد لونغ.

ارتعش صوتها وألمها معصمها بسبب ضغطه عليه، ولكن عليه أن يفهم أنها لن تذعن له.. ولا نية لديها للموافقة على اقتراحه.. مع ذلك لم يكن من السهل عليها البوح بقرارها، ويده تشد عليها لتجلس ثانية إلى جانبه، وعيناه تحرقانها.

تمسكت بقرارها بعناد محاولة إغلاق كل الأبواب في رأسها أمام جاذبيته الغامضة:

ـ لا أستطيع الذهاب.. لن أذهب، وهذا كل شيء! ألم يسبق أن رفض لك أحدهم طلباً؟

رد ببرود: «ليس غروري عظيماً كما تعتقدين.. ربما يجب أن تلقي نظرة على غرورك.. أو على الأقل على أخلاقك».

أدركت أنه قد يكون على حق.. فعضت شفتها بقوة. لقد كانت وقحة معه ولكنها لن تعتذر..

صاحت بغضب:

ـ لا شائبة في أفكاري.. فإن اخترت البقاء في لندن وقضاء الوقت مع شخص آخر فهذا لا يعني أنني خرقاء!

سألها بصوت بارد كالثلج:

ـ إذن.. أنت تنوين الوفاء.. بوعدك؟

ولأنها ظنت أنه يشير إلى عملها، ردت بكبرياء: «بالتأكيد».

شدها إليه بقسوة حتى ظنت أنه سيلوي ذراعها، لم يحاول الاعتذار حتى بعد انعكاس الألم على خطوط وجهها الرقيقة.

ـ لا أفهمك.. في اليوم الذي تعرفت فيه إليك، ظننت أن بيننا أموراً كثيرة مشتركة وأننا ستتفق. عرضت عليك عملاً لأنك بدوت لي من كنت أبحث عنه، لكنك رفضت العرض مع أن ذلك يعني أذية ابنة عمك. ثم دعوتك إلى أميركا على حسابي فشمخت بأنفك المتكبر أكثر فأكثر.. وليس السبب كرهك لي. لا أظن أن هذا هو السبب أبداً.. فما هو إذن؟

صاحت ثائرة الأعصاب أكثر منه:

ـ جرّب انتزاع الرد مني بالقوة.. ولكنه لن يكون الرد الذي تتوقعه!

رد بفظاظة: «وهل من رد يستحق من أجله المحاولة؟.. أنت تضعين أفكاراً في رأسي».

رفع يديه إلى كتفيها وهزها بعنف حتى شهقت لتتنفس.

ـ كف عن هذا!

جلب صياحها النادل وكان هذا ما أجبر رامزي على تركها، ولكنه لم يكترث لشحوب وجهها.. طلب كوب ماء فلمّا حمله إليه نقده خمس جنيهات وطلب منه استبقاء ما تبقى من الحساب.

سألته بحدة كادت معها تبكي:

ـ لِمَ هذا.. لتسكته؟ أتخشى أن يعلن للملأ أن رامزي لونغ العظيم يضرب الناس ليذعنوا له؟

قال غاضباً: «أيتها الشريرة!»

ووقف يشدها معه.

ـ فلنخرج من هنا.. قبل أن أتهور في ارتكاب ما هو أسوأ!

لم تدرِ ايريس أيهما يؤلمها أكثر، كتفيها أم قلبها، ولكنها بطريقة ما كانت مسرورة بشجارهما الذي وضع مسافة كبيرة بينهما.. أو هذا ما ظنته!

في السيارة، وفي الموقف المظلم، لم يمهلها رامزي الفرصة لتهدأ ولتجمع شتات أحاسيسها.. فما إن أغلق بابه حتى ارتدّ وضمها إليه بقسوة كادت تسلبها أنفاسها. بعد لحظات طويلة تسلب اللب رفع رأسه ليقول:

ـ ألا أستحق تعويضاً؟ لقد قدمت لك دعوة لعطلة نهاية الأسبوع، وكل ما قدمته لي هو إضاعة وقتي.. حسناً، كنت أعرف ماذا أفعل، لكن كنت أيضاً تعرفين! أنت لم تنوي قط قبول ذلك الدور.. أليس كذلك؟

ـ لا.. لم أكن أنوي القبول به.

ـ أيتها المخادعة الماكرة.. لكنني على الأقل أجبرتك على الاعتراف بخداعك.

وما فائدة الإنكار وهو مقتنع أنها ملامة في كل شيء؟ مع أن اللوم كله يقع عليه.

نظرت إليه بتحدٍ:

ـ كل ما أنا مستعدة للاعتراف به هو أنني مسرورة لأنني رفضت كل ما

له صلة بك.

ـ ستندمين على هذا.

أخافها الغضب في عينيه، فأخذت تتلوى لتتحرر من قبضته.

صاحت: «دعني! لا شك أنك مجنون!»

ـ وسأتأكد أن تجني مثلي قبل أن أنتهي منك!

منذ لحظات ظنت أنها مخدرة الأعصاب بحيث لن تشعر بشيء.. ولكنه لمّا ضمّها أحست ويا للصدمة أنها قد بدأت تستجيب له. وقبل أن تمنع الاستجابة، كانت أجزاء منها قد ضعفت.. وبذلت جهداً يائساً لتنتزع نفسها من بين ذراعيه.. رفعت يدها إلى الأعلى محاولة التراجع قليلاً.. ثم حاولت استغلال الفرصة لتصفعه أو لتخدش وجهه.. ولكن يديها رفضتا الانفتاح في الوقت المناسب، وهكذا ضربته بقبضتيها على عينه.

صاح صيحة ألم ذعرت منها.. تركها وراح يتلفظ بملاحظات حادة لا ترضي أذني أية فتاة عاقلة.

تجاهل جسدها المرتعش ثم أخرج السيارة من الباحة المرصوفة بالحصى، وراحت الإطارات تصرّ بصوت مرتفع منع أذنيها من سماع ألفاظه البذيئة.

عندما انتهت فورة أعصابه، لم يتبادلا كلمة، وظلّ على هذه الحال حتى وصلا إلى لايتون.. وهناك تمنت ايريس له ليلة سعيدة بصوت بارد وكم تمنت في تلك اللحظة لو تكون المرة الأخيرة التي تراه فيها.. لم تكن تدري كيف ستعود إلى لندن، ولكنها متأكدة بأنها لن تعود معه.

هرعت إلى الطابق العلوي، ولو كان هذا ممكناً، لتركت لايتون حالاً.. لكن رغم حالتها المشوشة أدركت أن من الغباء التجول في منطقة غريبة وسط ليل خريفي مظلم.. وأحست بالتوتر الشديد حتى كادت تصرخ.. تملكها إحساس غريب أنها ورامزي أصبحا واحداً بدل شخصين منفصلين، فشلت حتى ردات فعلها الطفولية في فصلهما.

في غرفتها انتزعت ملابسها وأخذت تستحم. بعد ذلك جففت جسمها وارتدت غلالة النوم.. إنها بلهاء لأنها رفضت عرض رامزي! شهر كامل في أميركا، فيه يعتني بها رجل مثله، يرعاها ويدللها.

فيما كانت تسرّح شعرها الحريري، انفتح الباب ودخل رامزي.

ـ أوه.. لا!

لم تدرِ أنها تأوهت بصوت مرتفع.. لماذا نسيت إقفال الباب بالمفتاح؟

ولكن رامزي لم ينسَ أن يقفله، ثم أخرج المفتاح من القفل ودسه في جيبه. أما هي فتسمّرت في أرضها.

شهقت: «أخرج من هنا؟»

نظر إليها والغضب ما يزال يومض في عينيه:

ـ لا.. أريد محادثتك.

تجاهلته لأن لا شيء بينهما ليقال.. لا شيء تغير، وكلاهما ما يزال غاضباً.. فتحت أصابع يديها باحتجاج أخرس:

ـ يجب أن تخرج حالاً.. ماذا لو سمعتنا أختك؟

ـ لن تسمعنا، فلها ولكيم جناح خاص في الطابق العلوي. أما هذا فجناحي أنا أستخدمه بمفردي مع ضيوفي.. حتى غرايس بعيدة عن مرمى السمع.

اتسعت عينا ايريس بذهول واحتقار قد يجرح مشاعر رجل أقل شأناً.. تجاهلت قسوة وجهه وحاولت التصرف بشكل مشاكس ساخر.. ربما هي فرصتها الوحيدة.. فلا جدوى من الجبن أمام رجل كهذا.

قالت ببرود وازدراء واضحين:

ـ لا أدري ما هي الترتيبات التي تتفق عليها عادة مع ضيوفك، لكنني لا أرغب أن تشملني ترتيباتك فرجاء أترك غرفتي!

لم تكن تدرك أن ظهورها بمظهر المرأة المحنكة سيؤدي إلى نتائج مختلفة كلياً عن تلك التي أملت بها.. ولم يحاول رامزي تنفيذ ما طلبت

بل قست تعابير وجهه ولم يهتم بالتساؤل عن سبب ازدياد شحوب وجهها الذي يدل على أنها بعيدة كل البعد عن الثقة التي توحي بها كلماتها الحادة.

رد برقّة:

ـ سأخرج متى شئت.. والواقع أن وقت مغادرتي في يدك. قلت لك إنني أريد محادثتك.

جعلها انجذابها الغريب إلى رجل تكاد لا تعرفه تصاب بما يشبه الهستيريا.

ـ اسمع.. أنا لا أريد أن أراك أو أسمعك.. وإن لم تخرج من هنا.. سوف.. سوف..

سألها برقّة: «نعم.. آنسة هالستون؟»

حذرتها نبرته من المضي في استفزازه.. ولكنها رغم ذلك أردفت:

ـ تعتقد أنني لا أعرف كيف أدافع عن نفسي؟

ضحك بما يقرب من الإهانة:

ـ أوه.. واثق أنك قادرة.. إنما ليس في غرفة نوم.

صاحت مذعورة:

ـ جملة علاقات أستطيع أن أقوم بها متى أردت.. في الواقع..

كانت على وشك اختراع قصة خيالية أخرى عندما توقفت في الوقت المناسب، مذعورة من المدى الذي يدفعها رامزي إليه.

ـ نعم..؟ في الواقع ماذا.. ايريس؟

ـ لا شأن لك في هذا.

سخر منها برقّة: لكنني أستطيع أن أحزر.. هل تحبين أحداً؟

الحب؟ إذن لم يدرك ما هي مشاعرها نحوه؟ وكان الخوف وراء ردها: بالتأكيد لا..

ـ إذن ستذهبين إلى ما وعدت به، وعيناك مفتوحتان من أجل التجربة؟

عمَ يتحدث؟ لماذا هو غاضب هكذا؟ لونه أبيض الآن غضباً.. ولا

شك أن غضبه كان يتزايد ويتزايد طوال الأمسية حتى وصل الآن إلى الذروة.. ارتدّت خطوة إلى الوراء:

ـ لا أعرف ماذا تعني.

ـ ستقضين ليلة الغد مع رجل.. على ما أعتقد؟ لقد وعدته.

لعلها قالت له إنها وعدت كلاري بالعمل، وهذا بالتأكيد ما أقنعه أنها تقول الحقيقة بشأن التزاماتها. ردت بحرارة: «لا شأن لك بهذا..».

ـ أجل.. سأفعل!

مرر عينيه عليها بشكل مهين، ونظر إليها نظرة سوداء.

أجفلتها نظرته فقالت: «اذهب.. ابتعد!»

عندما مد يديه ضربتهما بسرعة.. لكن هذا ذكّرها بشيء آخر فقفزت عيناها إلى وجهه.. رأت بداية كدمة قرمزية كبيرة على خده حيث فاجأته لكمتها.. فشهقت.. فقال وقد بلغ غضبه ذروته:

ـ أجل.. انظري جيداً ايريس.. لكن إن أصبحت عيني سوداء من اللكمة فأؤكد لك أنك ستتألمين أكثر بكثير!

ما إن انقطعت أنفاسها حتى بدا على وجهه الرضى..

ـ قبل انتهاء هذه الليلة ستتمنين لو قبلت طلبي ولكن ما زال أمامك وقت للتفكير بالسفر إلى أميركا معي.. وهذا ما جئت أقوله لك.

لم تصدق أنه سيجرؤ على أذيتها.. ولأنها تشعر بالثقة بقدرتها على الاستمرار في تحديه والحصول على ما تريد، ردت بشراسة:

ـ إذا كان هذا نموذج لما سأتوقعه.. فأنا مقتنعة أنني اتخذت القرار السليم.

رد بلهجة تنذر بالشر:

ـ مع ذلك تتصرفين وكأنك غير واثقة من أي شيء. أم لعلك تملكين شجاعة الجبان الهارب حين يصل به الأمر إلى المواجهة الأخيرة؟

المواجهة الأخيرة؟ هذا مخيف حقاً.. ارتدت عنه وكأنه شيطان.

ـ من الأفضل أن تخرج من هنا.. وبإمكانك الاعتذار في الصباح!

وكأنما هذا التحدي الأخير أفقده صوابه.. فها هي السيطرة الرهيبة التي كان يفرضها على نفسه تولّي.. وأحست ايريس بشجاعتها الزائفة تتلاشى بلمحة بصر. وبدأت تحاول أن تتوسل مع أنها تشك في أن يسمع رامزي التوسلات التي كانت تتساقط من شفتيها.

الآن باتت مضطرة إلى مقاومته ومقاومة أحاسيسها المتأرجحة.. قبل أن تطبق ذراعاه حولها أخذت تضرب وترفس وتخدش، وهي الأسلحة الوحيدة التي تملكها.. ولكن لم يكن لجهودها تأثير.. في النهاية تلقت هزيمة أكبر على يد جسدها الخائن.. وبدا أن كل شيء يعمل ضدها.. قوة رامزي، ضعفها الأنثوي، والأسوأ من كل هذا الجاذبية الكيميائية التي بدا أن لمسته قادرة على تحريكها فيها. الآن وفي هذه اللحظة أكثر ما تخشاه هو مدى تجاوبها معه.

بدت اليدان اللتان كانتا تقاومانه بشراسة غير قادرتين على ضمه بقوة كافية..

لولا تفوهه بكلمات الحب والشوق، لما أدركت ما يحدث إلا بعد فوات الأوان، كان يتمتم بصوت أجش عن بهجة الانتماء إلى بعضهما بعضاً، حين برقت في رأسها شرارة إدراك مخيفة.. حاولت بجنون محاربة مشاعرها وانتزعت نفسها من بين ذراعيه.

ـ ايريس.. بحق الله!

لم يكن لتوسله تأثير فيها.. ولكن المعرفة المؤكدة أنها لم تعد قادرة على المقاومة، حمل الدوار إلى رأسها.. فجأة أحست بانفجار هائل في أحاسيسها لا يماثله شيء غير حادثة تصادم سيارة.. وامتزج هذا الانفجار مع الضغط النفسي الذي لم تعتد عليه والذي مر بها في الساعات الأخيرة.. صاحت صيحة قوية ثم وجدت كل ما حولها يتحول إلى ظلام دامس.. وفقدت إحساسها بكل شيء.

لم تستعد وعيها حتى الصباح وعندما استيقظت وجدت نور النهار يتدفق من نافذة غرفة نومها.. لم تكن واثقة أين هي.. فاستلقت عابسة

وهي لا تشعر إلا برأسها المثقل المتألم.. رفعت ببطء يداً متخدرة لترجع شعرها إلى الوراء.. هي لا تعاني عادة من الصداع، وكانت على ما يرام عندما دخلت إلى الفراش.

عندما دخلت إلى الفراش! فجأة استوت جالسة وعاد كل شيء إلى ذاكرتها.. كان رامزي هنا.. وقد تقاتلا.. وأجبرت نفسها على تذكر المزيد.. ثم عانقها بشغف.. شعرت بالغثيان لأنها تذكرت مدى تجاوبها مع عناقه.. ترى ماذا حدث بعد ذلك؟ وضعت وجهها المحترق بين يديها مرتجفة... ليتها تتذكر كيف انتهى بهما الأمر!

* * *

ضغطت ايريس يديها على رأسها النابض ألماً فانسدل شعرها في غمامة حول كتفيها.. تذكرت صياحها في وجهه، وتذكرت صوت رامزي يرتفع غضباً..

تأوهت: «يا إلهي!» وأرجعت شعرها إلى الوراء بأصابعها المرتجفة.. أين هو رامزي الآن؟ ماذا فعل؟

وفيما كانت ترفع وجهها لتنظر حولها وقع بصرها على رسالة مسندة إلى زجاجة عطر، وكان عليها اسمها.. فتحتها بيدين مرتعشتين.. في الداخل وجدت ورقة ورزمة أوراق مالية.. حملت الأوراق المالية ثم راحت تقرأ ما في الرسالة: «عزيزتي ايريس.. أرجو أن تقبلي ما في المغلف بلا تردد، فهذا المال سيساعدك على الوصول إلى لندن وعلى استئجار شقة إن طردتك غرايس واعلمي أنني لا أريد رؤيتك أبداً بعد اليوم فقد عانيت منك ومن كبريائك ما فيه الكفاية..»

بعد بضع ساعات، زادت غرايس من بؤس ايريس التي لم تعد تطيق الوضع.. فطوال الطريق لم تقل غرايس كلمة، وها هي تفيض الآن في التعويض عن هذا.

حدقت دونما شفقة بايريس ووجهها الشاحب، ثم قالت بحدة:

ـ لا أدري ما الذي كان يجري بينك وبين رامزي.. ولكن لا يصعب

عليّ أن أحزر.

دارت حول غرفة الاستقبال، فراقبتها ايريس بصمت ثم رأتها تقف أمامها:

ـ لقد خرجت من الفيلم.. وأعتقد أنك تعرفين هذا؟ قال لي رامزي صباحاً هذا، وهو يعني أنك ستخرجين أيضاً.. وأرجو أن تفهمي!

ـ أخرج؟

لكنها لم تفهم.. فهي لم ترَ رامزي قبل أن ترحلا، لكنها تعرف أنه تكلم مع غرايس.

صاحت غرايس بوجه قبّحه الغضب:

ـ أعني أنت.. بإمكانك الخروج من هنا! أيتها الحمقاء الصغيرة! كنت قادرة على جعله يأكل من يدك، لكنك لم تحاولي.. هل كان عليك أن ترفضي كل ما يقترحه؟ أنت لم توافقي على شيء من أجلي! بعد كل ما فعلته لك.. بعد اليوم لن يعرض عليّ أحد ما هو ملائم.. حسناً.. سأسافر إلى برمودا، أما أنت فاذهبي إلى الجحيم. أنت لن تقيمي هنا!

ـ سأجد.. مكاناً آخر.

ـ هذا أفضل لك.. قومي بهذا حالاً! لماذا لا تجربين «الماما» وزوجها الرقيق الذي يبدي إعجابه بك كثيراً؟

همست بعدم تصديق: «أنت مجنونة».

ـ مجنونة؟ لا أظن هذا! لماذا تظنين أنهما تشاجرا كثيراً حين كانا هنا في آخر مرة؟ لم يستطع إشاحة بصره عنك وقد عرفت هي بهذا.

حاولت ايريس أن تتكلم بهدوء:

ـ أنت تتخيلين الأشياء!

ـ لن أجادلك في هذا.. وضبي ثيابك واخرجي من هنا لأسافر مطمئنة، وإن لم تفعلي رميتك إلى الخارج بنفسي؟.

بعد نصف ساعة كانت ايريس جالسة على مقعد خشبي في حديقة «ريجنت» العامة، تراقب الريح تتلاعب بأمواج البحيرة.. كانت مصدومة

شاحبة ومع ذلك تساءلت عما قد يصيبها بعد اليوم؟ ترى ماذا تفعل؟ من المستحيل أن تسعى إلى أمها لإفساد زواجها الجديد.

جلست في الحديقة كئيبة تفكر.. لديها بعض المال. ولكنها لا تعرف أين تقيم. فجأة خطر ببالها أمر.. لماذا لا تذهب إلى منزلها في ديڤون؟ لديها كيس نوم، وإن لم تكن غرف النوم قابلة للسكن، تنم في المطبخ.. وبما أن المنزل لها يجب عليها إلقاء نظرة عليه يوماً.. وقد يكون هذا أحد السبل لحل مشكلتها الحالية.

جلست وقتاً أطول بقليل.. وأجبرت نفسها على التفكير بروية. فكرت كيف أجبرت على التصرف باستعجال في الماضي.

بعدما عقدت العزم أخيراً، فكرت في حسابها المصرفي الفقير.. سيكون معها ما يقل عن مئة جنيه، وهذا المبلغ جزء من مبلغ صغير أرسله لها والدها في عيد ميلادها ورواتب متأخرة من كلاري..

هنا توقفت عن التفكير فما زال معها مال رامزي.. كانت تنوي أن ترده إليه وهي في لايتون.. ولكنها لم تستطع.

عندما نزلت من غرفتها لم تجد غير غرايس التي كانت تنتظرها في الردهة وحينئذ قالت لها إن رامزي قد سافر. وبما أنها لا تملك عنواناً ترسل المبلغ إليه، قررت الاحتفاظ به في الوقت الحاضر وكان إن أخفته في أسفل حقيبتها.. لن تلمس بنساً واحداً منه.

حاولت الآن أن تفكر بشكل متعقل ولكنها تدرك أن عليها العمل بسرعة وإلا لن تصل إلى نتيجة.. هكذا لم تفكر في كل المصاعب التي قد تعترضها أثناء الرحلة إلى ديڤون، ولم تفكر في الأمر حتى أصبحت في القطار.. قد يكون المقام في «ايسكتر» أقل نفقات من لندن.. وهي تفضل الخروج من لندن لأنها تذكرها برامزي. أسوأ ما تتذكره منه أنه ترك لها مذكرة أوضح لها فيها أنه يعتبرها نكرة يمكن التخلص منها بحفنة من مال.

وهذا لا يعني أن الفرصة قد تتاح لها.. فهي لا تعتقد أنها ستراه مرة أخرى.. ولكنها الآن تشعر بالكره له.. فهي لا تدري ماذا حدث تلك

الليلة.. وعليها أن تعيد تنظيم حياتها، وأن تخرج من رأسها وإلى الأبد فكرة الزواج.. وربما في غضون الأسابيع القليلة القادمة وفي هدوء ريف «ديفونشاير» قد تتعلم التأقلم مع الجو وتتمكن من اتخاذ القرارات المناسبة للمضي قدماً في حياتها.

بما أن الظلام كان قد هبط حين وصلت إلى «ايكستر» فقد قررت المبيت هناك ليلة على أن تنطلق في الصباح للبحث عن منزلها.. لقد قال المحامي إن في المنزل من سيدخلها إليه، وهذا أمر غريب.. هل كان يعني أن الباب لن يكون موصداً أم أنه ترك المفتاح عند الجيران؟

في الصباح التالي استقلت ايريس باصاً مسافراً إلى الشمال الغربي، فمرت ببلدات تحمل أسماء غريبة.. لم تكن الرحلة طويلة فعلياً ولكنها بدت معقدة لأنها لم تستطع معرفة عنوان أملاكها، ولم يبدُ أن أحداً قد سمع بها.. ولما أصبحت على مقربة من مقصدها بدأ الريف يتحول إلى مكان وعر وطالت المسافات بين القرى، وقبل وقت من وصولها إلى القرية التي تسعى إليها، اقتنعت أنها ضاعت.. في آخر قرية، توقفت أمام منزل ريفي رائع لتسأل بيأس عن الاتجاه، وتمكنت المرأة العجوز التي حدثتها من تحديد موقع منزلها بالضبط.

ـ على بعد ميل من المكان الذي أنزلك فيه الباص ثم سيري بضعة ياردات في طريق خاصة.. أظنك قادرة على رؤيته من الطريق العام.

شكرتها ايريس وتابعت المسير بعدما حفظت جيداً التعليمات.. وجدت أن مسافة الميل صحيحة، لكن الياردات لم تكن قليلة.. لكن حالة الطريق لا طولها هي ما ملأ قلب ايريس رهبة.. كانت مليئة بالحفر العميقة التي هي كافية لتبعد أي مشتر عن شراء المنزل حتى ولو كان هذا الأخير في حالة مناسبة.

عندما وقع نظرها على المنزل خشيت أن تكون قد أخطأت المكان.. كان الدخان يتصاعد من مدخنته.. الواضح أن المنزل مسكون.. لهذا دهشت حين قالت لها المرأة التي خرجت لاستقبالها أنها لم تخطىء..

حين قالت ايريس إنها لم تتوقع رؤية أحد هنا، ردت المرأة أنها عاشت مع المالكة الأخيرة، وهي ابنة عم والدة ايريس طوال حياتها، أولاً خادمة ثم مدبرة منزل، وبعد موت السيدة العجوز طلب منها المحامي البقاء للعناية بالمكان حتى يصل المالك الجديد..

أردفت: «اسمي غالورت.. أما عمري فسبعون سنة.. ظننت أنني اكتفيت من المفاجآت ولم أتصور قط أن يكون المالك الجديد سيدة شابة مثلك».

لحقت بها ايريس إلى غرفة استقبال قديمة الطراز.

ـ لا أدري كيف أصبحت المالكة.. فالآنسة بورتشيل لم ترني قطّ ولا تعرفني، ومع ذلك أورثتني منزلها. أعتقد أنها لم توافق على طلاق أمي؟

قالت غالورت بجفاء:

ـ لا.. لم توافق.

نظرت ايريس إلى ما حولها، إلى الغرفة العتيقة لكن النظيفة الدافئة الصغيرة بفضول:

ـ من الغرابة ألا تتركه لك.

بدت الصدمة على غالورت:

ـ أوه.. ما كانت لتفعل هذا عزيزتي.. لم أكن سوى خادمتها.

ـ بعد كل تلك السنوات؟

هزت رأسها الرمادي المرتب موافقة:

ـ لم يكن لهذا فرق عندها.. وأنا لا أسمح بسماع كلمة عنها.. كانت في غاية الطيبة معي.. عاملتني دائماً كصديقة.. ولكننا كنا نعرف مراكزنا.

وطفقت غالورت تشرح أن هناك غرفتين في الطابق السفلي وغرفتين في الطابق العلوي، ومطبخ تنام فوقه في مكان دافىء ومريح.

ـ وثمة كوخ رائع أستطيع أن أحصل عليه في القرية متى قررت الاستغناء عني.

أحست ايريس بأن الأمور تسير بسرعة.. ولكنها عرفت أن العجوز قلقة على مستقبلها. حاولت أن تشرح لها أنها لا تملك مالاً لتدفع راتبها.

ـ وإن لم أحصل على عمل فقد لا أستطيع إدارة المنزل.

نظرت إليها غالورت بحدة ثم عبست وهي ترى وجهها الشاحب وجسدها النحيل.. قالت بصراحة:

ـ لا تبدين بحالة تسمح لك بالعمل أو بإدارة منزل.. وأظنك على حافة الانهيار..

ـ بالتأكيد لا..

ووقعت أرضاً فاقدة الوعي.

كان الطبيب الذي استدعته غالورت بعدما فشلت في إيقاظ ايريس من إغماءتها واثقاً من نفسه.

ـ جسدياً أنت في حالة جيدة أيتها الشابة، ولكنك نحيلة كثيراً وأعتقد أنك أصبت بصدمة من نوع ما.. في الواقع أنا متأكد من هذا.

تحدث معها قليلاً، فاعترفت بالتدريج أنها تعرضت لصدمة ولكنها رفضت أن تضيف كلمة أخرى.

ـ سأترك لك مهدئاً وأزورك في الغد.

قالت غالورت: «سأعتني بك الآن».

نظرت إليها ايريس بلهفة عن الأريكة القديمة:

ـ لكنني لا أستطيع أن أدفع لك أجرك!

ـ ومن تحدث عن الأجر يا فتاتي الجميلة؟ لدي راتب تقاعدي وسقف يظللني.

فكرت ايريس بقلق أن هذا غير كاف ولكنها وجدت نفسها أضعف من أن تجادل.. شعرت بأن جسدها وروحها محطمان بحيث لم تستطع أن تجد القوة لتحتج.

ما برحت ايريس فراشها إذ كان رأسها يؤلمها بمقدار ما كان قلبها يتألم.. لكنها في الصباح التالي أحست أنها أفضل حالاً ومع ذلك لم

تستطع أن تتناول من الفطور غير نصف قطعة توست وفنجان شاي غير أنها شعرت ببعض النشاط الذي جعلها تلقي نظرة إلى ما حولها وجعلها تحادث غالورت.

كان المنزل في حالة معقولة.. ولم يكن يحتاج إلا إلى ديكور وإلى إصلاحات متفرقة.. ولكن المباني الملحقة لم تكن في حال جيدة إنما لو نُظفت وطليت أو ما شابه لبدت مقبولة.. إن هذه المباني مع المنزل والفدادين الخمسة قد تجتذب اهتمام إحدى العائلات المغامرة التي ترغب في الابتعاد عن كل شيء للاعتماد على نفسها.. تجولت ايريس في الأرض كئيبة، ما تحتاج إليه فعلاً هو رجل يساعدها.. التوت شفتيها بمرارة وهي تفكر في رجلٍ محدد.

كانتا تتناولان القهوة في المطبخ وتتناقشان حال المنزل عندما قالت ايريس:

ـ يجب أن أبحث عن عمل لأستطيع شراء المواد الضرورية للترميم والطلاء.

فكرت في مال رامزي الملقى بإهمال في أسفل حقيبتها، لكنها نهرت نفسها على هذه الفكرة.

قالت غالورت تحذرها:

ـ حتى ولو وجدت عملاً.. لن تستطيعي الانتقال من هنا يومياً.

ـ وماذا عن القرية؟

ـ لا شيء فيها أبداً.. سمعت أن موظفة الاستقبال عند الطبيب ستترك عملها قريباً.. لكن يجب أن يكون لديك المؤهلات المطلوبة.. أليس كذلك؟

ـ أجيد الطباعة والحسابات.

ـ إذن من الأفضل أن تسألي الطبيب حين يزورك.

قالت لها غالورت بوقار إن لديها بعض المال في المصرف.

ـ المال ملقى في المصرف.. قد أقرضك منه ما شئت ويمكنك أن

تسديده بعدما تبيعين المنزل.

حذرتها ايريس التي ابتسمت لها بحرارة:

ـ هذا إذا وجدت مشترياً.. سأقبل القرض بسرور شرط أن أسدّده مع فائدة مناسبة بعد البيع.. ثم سأصرّ كذلك على أخذ شيء في مقابل العناية «بموراديج» منذ موت نسيبتي، إضافة إلى المدة التي ستعملين بها عندي.

ردت غالورت على ابتسامتها والدمعة في عينيها:

ـ لن أخسر شيئاً إذن.. لكن يجب أن تتأكدي من بقاء شيء لك.

دهش الطبيب عندما عرف أن ايريس تبحث عن عمل، ووافق على استخدامها حينما تتركه الفتاة التي تعمل عنده لتتزوج ولم يحدد لهذا موعداً.. أولم يدرك أن العمل الشاق هو الرد على كل مشاكلها؟

رغم نفاد صبرها وجدت أنها مضطرة للانتظار عدة أيام قبل أن تتمكن من العمل، ومع ذلك كانت تشعر بالإرهاق.. الصدمة والمرارة اللتين سببتهما طريقة رامزي في طردها استنزفتا قواها.. على أي حال، وفي نهاية الأمر، أجبرت نفسها على المباشرة بالعمل فبعدما وافق محل بيع الطلاء في القرية على تسليمها كل المواد المطلوبة، قررت المباشرة بطلي المباني الخارجية.

لأنها كانت عازمة مصممة أشعرها بالإحباط التقدم البطيء في العمل.. تنهدت غالورت لنفاد صبرها بسرعة وقالت إن عليها عدم استعجال الأمور ولكن صعُب على ايريس أن تسترخي.. وكان الطلاء بالأبيض عملاً روتينياً مرهقاً لم يترك لها الوقت للتفكير.

في الطابق العلوي استخدمت كبرى الغرفتين.. وحاولت قضاء معظم ساعات الليل الطويلة وهي تقرأ قصصاً كلاسيكية قديمة وجدتها في المنزل.. ولكنها الليلة، ورغم محاولاتها اليائسة، لم تستطع التركيز على القراءة.

بعد منتصف الليل وضعت الكتاب من يدها ولكنها تركت النور مضاءً، فالظلمة تحمل إليها كوابيس عن رامزي. ليلة أمس رأت في منامها

أنها بين ذراعي رامزي الذي كان يعانقها بشغف، وعندما استيقظت وجدت يديها المشدودتين تدفعان بشكل يائس شيئاً لا وجود له.

تذكرت الحلم فتألمت وارتدت على وجهها، وأخذت يداها المضمومتان تضربان رأس السرير الخشبي.. وعندما توقفت توالى الضرب.

ظنت أن سمعها يوهمها ولكنها سرعان ما استوت جالسة.. ففي الباب شخص ما، إنها تسمع الطرقات على الباب الأمامي.. نهضت ببطء من السرير.. وسارت بهدوء في الغرفة.. كانت نافذتها تطل على الباب الأمامي. ضغطت وجهها بحذر على الزجاج.. إنها ليلة مخيفة مظلمة فيها الريح تولول وتدفع المطر كالطوفان نحو المنزل. ولكنها استطاعت رؤية طيف رجل طويل واقف هناك.. بدا يترنح، إلا إذا كانت الريح هي التي توحي لها بهذا.. ومد يده مرة ثانية إلى مطرقة الباب.

ارتدت ايريس مذعورة ذعراً كاد يخترق عظامها. من يكون؟ وماذا يريد؟ لماذا يدق رجل على بابها في مثل هذا الوقت من الليل؟ أهو شخص مصاب يطلب العون؟ كيف لها أن تتجاهله؟ إن كان مصاباً وعاد إلى أراضي المستنقعات فقد يجدونه ميتاً في الصباح!

أسرعت تضيء النور الذي أطفأته قبل النهوض من السرير ثم تناولت روبها.. غالورت نصف صمّاء ولا شك أنها ستنام نوماً عميقاً بحيث لن تسمع أي قرع على الباب خاصة في ليلة كهذه.

لم تتوقف للتفكير مجدداً في ما إذا كانت تتصرف ببلاهة بل سارعت تنزع الرتاج لتفتح الباب.. وكأنما شيء أقوى منها يدفعها إلى هذا.. ولعل أكثر ما أربكها وأذهلها أن الرجل وقع عليها وهو ما يزال يمسك بالمطرقة.. رفعت يديها لتحمي نفسها ودفعته عنها مذعورة.. لكن ما إن لامسته حتى أحست بإحساس حارق وعندما رفعت عينيها إلى وجهه كاد يغمى عليها.. فالرجل الطويل الأسمر الذي تهاوى فوقها في الردهة الصغيرة ليس سوى رامزي لونغ.

لم تصدّق عينيها. في البداية ظنت أنه رد فعل على أحلامها ولكن عندما حدّقت إليه بعينين مذعورتين متسعتين، وجدت أنها لم تكن مخطئة البتة.. كان يكافح ليقف وكأنه يحاول استعادة توازنه. فتحت فمها لتشهق باسمه ولكن صوتها لم يخرج من شفتيها.. كانت حنجرتها مشدودة حتى عجزت عن الكلام.. ولكن ما ضاعف ذهولها أن ترى عينيه تنظران إليها وكأنه لا يعرفها.. كانتا شديدتي الاسوداد جامدتين كلياً وسط وجه أبيض خال من الدم.

قال بصوت أجش: «آسف سيدتي.. آنستي.. آسف لأنني أزعجتك هكذا.. لكن يبدو أنني لا أعرف أين أنا».

راحت تنظر إليه بعدم تصديق.. وعجزت عن الكلام مدة دقيقة كاملة ولكنها همست أخيراً:

ـ إنها أملاك اسمها «موراييدج». إنها مجرد منزل وقد لا تكون موجودة على الخريطة.

رفع يده إلى رأسه مرتجفاً وكرر:

ـ ليست على الخارطة، فلأقُل الحقيقة.. لا أدري أين أنا، أو ماذا أفعل هنا!

توقفت أنفاس ابريس مجدداً.. وراح قلبها يخفق، كان يجب أن تدفعه إلى الخارج، ولكن ساقيها كانتا ضعيفتين. كيف يجرؤ على المجيء إلى هنا ليشتت توازنها الذي جاهدت للحصول عليه؟ ما طبيعة اللعبة التي يلعبها الآن؟ لماذا يدعي أنه لم يعرفها؟ ولكن أيدّعي؟ وفيما كانت تتعرف إلى أولى بذور الشك لاحظت بقعة دم على رأسه.. الواضح أنه عانى من ضربة ما أثرت ربما على ذاكرته.. ترددت بارتباك كابحة الانتقادات اللاذعة قبل أن تتفوه بها.

أجبرت نفسها على السؤال بصوت متزن:

ـ هل تعرضت لحادث سيارة؟

وضع يده على رأسه مجدداً وتأوه:

ـ لا أدري.. قلت لك! أعتقد هذا.. كل ما أعرفه أنني كنت مستلقياً على قارعة الطريق ثم رفعت نفسي وجئت إلى هنا عندما رأيت النور.

إنه مصباح غرفتها المشع من نافذة غرفة النوم والظاهر للطريق. لا شك أنه لحق به طوال الدرب الترابي حتى وصل إلى المنزل.. مع ذلك أحست أنها غير قادرة على الثقة بما تقوله لها غريزتها.

ـ لا أظنك كنت تتجول في أراضي المستنقعات في «دارتمور» في مثل هذا الوقت من السنة بدون معطف. هل معك سيارة؟

صاح بشراسة: «وكيف أعرف بحق الله؟»

لمّا رآها تتقوقع على نفسها، اعتذر:

ـ أنا آسف.. إنه لكرم أخلاق منك أن تدخليني إلى منزلك وها أنا لا أكافئك إلا بالصراخ في وجهك! لا يمكنك معرفة كم هو مخيف الإحساس بأنك لا تعرفين هويتك.

كان على سرواله وحل وكذلك القليل على قميصه، لكن رأسه هو الذي كان أسوأ حالاً كما يبدو.. بدا وكأنه كان سائراً وضربه سائق أرعن؟ ربما ترك معطفه في سيارته ليخرج ويبحث عن شيء؟

فجأة سألها بصوت متواضع:

ـ هل لي أن أجلس دقيقة؟ أحس بشيء رهيب.

ـ إذا أحببت.

اقتادته وهي تبتلع ريقها بصعوبة من غرفة الطعام الصغيرة إلى المطبخ الدافيء، وأجلسته في مقعد.. راقبته يهوي برأسه على الطاولة ويغمض عينيه.. إن ملامسته حتى لوقت قصير أوقعت في نفسها الرهبة.

سيطرت بصعوبة على أطرافها المرتجفة.. ولكنها لم تستطع القيام بشيء لقلبها الخافق بسرعة مضاعفة، وأغمض رامزي عينيه بثقل وبدا مريضاً فعلاً.

رغم ضعف سمع غالورت استيقظت، وعلى ما يبدو أن غريزتها تدربت على إنذارها وقت الحاجة.

سألت وهي تنزل سلم المطبخ الخلفي: ما الأمر؟

ووقفت تطوف بعينيها الماكرتين على جسد رامزي الطويل القوي.

ـ هذا الرجل مصاب.. من هو؟

قررت إيريس ألا تعترف بأنها تعرفه. نظرت إلى غالورت وهزت كتفيها:

ـ كان يطرق الباب وبدا أنه مصاب في رأسه، ويقول إنه لا يتذكر من هو.. أو ماذا يفعل هنا.

اقتربت غالورت من رامزي:

ـ أين معطفه؟

ـ لم يكن يرتدي معطفاً.

أكدت غالورت شكوك ايريس: «سائق أرعن كما أعتقد».

ومررت يداً خبيرة على جبهته.

ـ لقد تلقى بكل تأكيد صدمة قوية.. هل تحسستها؟

انتفضت ايريس مذعورة وارتدت إلى الوراء وكأنها لسعت: لا!

كانت غالورت لحسن الحظ مشغولة بمعاينة رأس رامزي فلم تلاحظ شحوب ايريس.

ـ من فعل هذا أخذ معطفه ومحفظته.. محظوظ لأنهم تركوا له قميصه في هذه الأيام.. أقلت إنك لا تعرفين هويته؟

قامت ايريس بما في وسعها لتجنب نظرة غالورت الثاقبة:

ـ لا.. أنا لا أعرفه.. ولكنني أراه بحاجة إلى مساعدة.

هزت غالورت رأسها:

ـ أجل.. لا شكّ في هذا.. علينا استدعاء الطبيب مرة أخرى في الصباح.

ـ في الصباح؟

كانت ايريس تحس ببرود شديد وهي تنظر إلى رامزي بكراهية.. ولكنها في الوقت ذاته كانت تشعر بلهفة رهيبة لم تعرف لها سبباً ولكنها

تهدد بتمزيقها.

ـ لا نستطيع الانتظار حتى الصباح غالورت.. سأذهب الآن.

ـ إننا في منتصف الليل آنسة ايريس ولست في عافية.

أصرّت بعناد: «ما زلت أعتقد أن علينا ألا ننتظر حتى الصباح.. هل أنت متوترة الأعصاب بسبب بقائك هنا معه بمفردها؟»

هزت غالورت رأسها:

ـ لن أخاف منه وهو في هذه الحالة.. فهو الآن غير قادر على الوقوف على قدميه بسهولة.. لا عزيزتي.. أنت من أنا قلقة عليها وليس هذا السيد.

سيد! كان بإمكان ايريس أن تقهقه عالياً وهي تتجاهل غالورت التي توسلت إليها لئلا تخرج بسبب وعورة الطريق ورداءة الطقس.. ليت غالورت تعرف! عندما خرجت لم تتوقف لتفكر لماذا هي راغبة في هذه المخاطرة في ليلة كهذه.. ولو أمعنت التفكير لأقنعت نفسها بأن هذا ما قد تفعله لأي كان.

كان الطبيب قد وصل للتو من المساعدة في استقبال طفل إلى هذا العالم.. وبعد تعليق حاد عن حالتها أعادها فوراً إلى «مورايدج».

قال: «ثمة غرباء كثيرون يضيعون في المستنقعات.. ولكن حاولي التأكد دوماً من أنهم بحاجة ملحة للعناية قبل المخاطرة بحياتك».

حينما كان الطبيب يعاين رامزي كانت ايريس ترتعش من الداخل.

تمتم الطبيب: «أمر غريب! لا يبدو من المتشردين.. لكن لا يمكن أن تعرفي.. بعض الناس يجدون الحياة صعبة عليهم فيتشردون على الطريق. أتساءل من هو؟»

لم تقل غالورت أو ايريس شيئاً فأردف:

ـ على أي حال.. قد يكون هناك تفسير بسيط.. من الأفضل أن ننتظر الصباح قبل أن نقفز إلى المزيد من الاستنتاجات.

سألت غالورت: «وفي هذه الأثناء.. ماذا ستفعل به؟»

صاحت ايريس: «سيبقى هنا طبعاً»

ثم تورد وجهها، لماذا قالت هذا وهي لا تطيق النظر إليه؟ أضافت متلعثمة:

ـ أقصد.. لا يمكننا إخراجه وهو في هذه الحالة، أليس كذلك؟

رد الطبيب:

ـ من الأفضل أن أصحبه إلى المستشفى..

عبست ايريس: «مستشفى؟»

وهزت غالورت رأسها.. أما الطبيب فراح يحضر مريضه وهو يقول:

ـ إنه أفضل مكان للتأكد من عدم وجود ضرر دائم.. يجب أن يصور بالأشعة السينية للتأكد بأنه لا يعاني من أكثر من فقدان ذاكرة مؤقت.. بعد ذلك سنرى.

لم يحاول رامزي مجادلتهم فما زال ضعيفاً.. ولكنه تأوه:

ـ سأذهب إلى أي مكان.. إن كان ذلك سيساعدني على استعادة ذاكرتي.

طمأنه الطبيب:

ـ قد تعود إليك بسرعة.. ولكن ما هو الأهم الآن هو وصولك إلى المستشفى.

وارتدّ إلى ايريس عابساً:

ـ سأطلب منك مرافقتنا عزيزتي.. سيحتاج لمن يكون إلى جانبه ليمسك به، وأنا أتجنب الحفر على الطريق هنا.. فلا أريد أن أكون مسؤولاً عن إصابة أخرى غير ما أصاب رأسه.

* * *

٤ ـ السيدة والعبد

انطلقوا بالسيارة ولكنها لم تكن مستعدة للطريقة التي تهاوى نبها رامزي عليها كلما مالت السيارة لتجنب حفرة في الدرب الوعر. سحبت نفساً عميقاً ثم أجبرت نفسها على التحمل بدون أن تصرخ.

لماذا جاء إلى هنا؟ حينما سعت إلى الطبيب منذ ساعة كانت مشغولة في مقاومة عوامل الطبيعة بحيث لم تتح لها الفرصة للتساؤل، أما الآن فراحت تتساءل عن الأمر بارتباك.. تعرف أن موقع تصوير فيلمه القادم في «ديڤون».. ولكنها فهمت أن جزءاً منه سيصور هناك.. كما أنهم لن يبدؤوا التصوير قبل شهرين على الأقل.. الواضح أن خطط رامزي قد تغيرت، ولكن ربما لم يكن لمجيئه إلى هنا علاقة بها.. لا تظنه يعرف مكان تواجدها وغرايس مسافرة..

استنتجت ايريس أن لا علاقة لها بمجيئه إلى هنا. ربما كان يبحث عن موقع محدد.. وحينما وجده قرر البقاء مدة أطول ربما ليغير شيئاً في السيناريو.. لقد قالت عنه غرايس إنه متشدد في مسألة تنفيذ كل شيء بدقة.. أو لعل هذه إحدى ألاعيب القدر التي تسببت بارتطام رأسه بشيء ما، ثم شاهد النور في غرفتها.. ولولا النور لما اجتاز كل هذه المسافة، ولما عرفت بوجوده.

نظرت إليه وسط ظلمة سيارة الطبيب فشعرت بالحرارة في أوصالها، لكنها كانت باردة من الخارج..

عندما هوى رأس رامزي مجدداً على كتفها واضطرت إلى وضع كلتا

ذراعيها حوله لمنعه من السقوط، باتت لا تطيق ما تشعر به ولزمها جهد كبير لئلا تدفعه عنها أو تمنع نفسها من ضربه في محاولة منها لتؤذيه ولتجعله يعاني بمقدار ما جعلها تعاني.

في المستشفى نصحها الطبيب بملازمة السيارة حتى يعود، فهزت رأسها موافقة.. بعد نصف ساعة اعتذر الطبيب لأنه تركها منتظرة، فقد كان مضطراً للانتظار حتى يستقر مريضه. وعندما قفل راجعاً بالسيارة إلى منزلها ابتسم:

ـ قد يهمك أن تعرفي أن الممرضات أسمينه «ابولو» حتى تعود له ذاكرته، وهو اسم إغريقي لإله الجمال الأبيض البشرة، الأسود الشعر.

قال مجدداً عندما ترجلت من سيارته:

ـ سأخبرك غداً عن حالته إلا إذا اتصلت بالمستشفى بنفسك.

ظلت تقول لنفسها إن من السهل عدم السؤال عن رجل تكرهه.. ولكن الأيام الثلاثة التالية كانت أطول أيام عاشتها.. حاولت يائسة أن تغرق نفسها في العمل، لكن قلقها على رامزي جعلها مرهقة ومتوترة.

لم تكن غالورت تعرف شيئاً عن هذا بالطبع.. فقد تنهدت حالمة قليلاً:

ـ ما نحتاج إليه هنا.. هو رجل.

في صباح اليوم الثالث، جاء الطبيب ليقول إن رامزي مستعد لمغادرة المستشفى وإنه يرغب في الإقامة عندها، فسألت غالورت بريبة:

ـ وهل استعاد ذاكرته؟

لاذت ايريس بالصمت وقال الطبيب بصراحة:

ـ لا.. فلو عادت إليه ذاكرته لما طلب مثل هذا الطلب.. وليس لدي أية وسيلة لأعرف شيئاً عن ماضيه.. لكنني أشعر أنه لم يأت من كوخ موحش قديم في المستنقعات.

نظرت غالورت إلى ايريس حائرة ربما لأن إيريس لم تتكلم، وسألت:

ـ ماذا عن الشرطة؟

طمأنها الطبيب: لقد أبلغتهم.. ولم يستطيعوا الإفادة.. فليس لديهم معلومات عن رجل مفقود أو مطلوب له مواصفاته.

سألت غالورت:

ـ وهل وجدوا سيارته؟

هز الطبيب رأسه:

ـ لا.. لم يجدوا أية سيارة أو أي أثر يدل على وجودها. أظن أن صديقنا لا يملك سيارة. لقد وجدت الشرطة آثار إطارات ولكنها لم تجد أثراً لشجار كبير، ويعتقدون أنه تلقى ضربة أفقدته الوعي، وأن من فعل هذا هرب بسيارته وماله وكل ما يدل على هويته.

تمتمت بلهفة: أعتقد أن الشرطة ستبذل ما في وسعها.

قال الطبيب: «لكن علينا أن نتذكر، ربما لا أحد يبحث عنه. أو لعله لا يريد أن يجده أحد.. وله حتى يثبت أنه مذنب في شيء كل الحقوق التي يتمتع بها أي مواطن».

شعرت بالذنب ولكن كراهيتها لرامزي دفعتها إلى عدم كشف هويته وقالت ايريس أخيراً:

ـ هل هو بخير فعلاً ليغادر المستشفى؟

ـ أجل.. لكن لا مكان يأوي إليه ولا مال. لقد استعاد عافيته بسرعة ولكنني أود أن يبقى تحت مراقبتي حتى يستعيد ذاكرته.

سألت غالورت بسرعة: «وكم سيدوم ذلك؟»

ـ لست واثقاً.. ربما أسبوعاً، سنة.. أما الآن فيكاد يجن من الإحباط.

تكلمت غالورت وكأن القرار عائد إليها:

ـ لا أدري، ولا أعرف ما إذا كان إيواؤه أمراً حكيماً.

قاطعتها ايريس وكأن شيئاً يدفعها إلى هذا رغماً عنها:

ـ سنتركه معنا بضعة أيام غالورت.. وعندئذ سنرى إن كنا نتفق معه.

ارتدت غالورت بحدة إلى الطبيب:

ـ ألا يمكنك إيواؤه عندك؟

ـ بإمكاني هذا.. لكنني لست متزوجاً، وحياتي المنزلية صعبة.. على أي حال، لا أظنه على استعداد لمواجهة طبيعة حياتي الآن.. ويبدو أن هدوء هذا المكان هو ما يجذبه.. قد يجعل فقدان الذاكرة أقوى الرجال شخصاً متوتراً.

مطت غالورت شفتيها ولم تقل المزيد، تاركة حسم الأمر لإيريس.

أضاف الطبيب: «لست متأكداً من موافقتي.. ولكنني وعدته أن أسألك.. ولو زرته في المستشفى ايريس لطلب هذا منك بنفسه.. إنني أبلغك رسالة فقط».

كانت عينا الطبيب تراقبان ايريس، وعرفت أنه يتساءل باستغراب لماذا بعدما اجتازت المسافة إلى القرية لاستدعائه تجاهلت وجود الغريب.. يمكن لرامزي أن يأتي إلى هنا إذا كان ذلك سيساعده. إنما لن تدعوه رامزي.. بل اپولو.. وابتسمت للطبيب موافقة.

حينما وصل رامزي في وقت آخر من النهار مع الطبيب بدا مختلفاً كلياً فشهقت.. ولكن أخلاقه هي التي اختلفت.. كان في الماضي بارداً واثقاً من نفسه.. أما الرجل الذي لحق بالطبيب إلى المنزل فقد كان بعيداً كل البعد عن الثقة بنفسه.. فعيناه مترددتان وعلى وجهه الذي كان ينظر إليها ألم.. بدا وكأنه متلهف ليرى شيئاً يعيده إلى الواقع.. ما إن رأى ايريس حتى عمّ وجهه العرفان بالجميل فكادت تصيح احتجاجاً.. لكن لم يكن في عينيه شرارة معرفة.

تلاشى شيء من توتر ايريس وأطلقت نفساً طويلاً ملؤه الراحة، وأحست أنها أفضل حالاً.. لكن للحظة فقط.. فقد تذكرت من هو وكيف طردها بطريقة مذلة.. فعاد قلبها إلى قسوته.. إنها غير واثقة من دوافعه لزيارة هذا الجزء المحدد من الريف.. ولا هي واثقة من دوافعها هي في السماح له بالبقاء هنا.. ولكنها عرفت أن لهذا علاقة بالانتقام..

ولم تكن قد فكرت في هذا حتى الآن، ولكنها جزمت أن الأيام القليلة المقبلة أو الأسابيع المُقبلة ستكون الفرصة الوحيدة لها للانتقام.

بعد رحيل الطبيب وذهاب غالورت إلى المطبخ لتنظف أدوات الشاي، صحبت ايريس رامزي إلى الطابق العلوي وأرته الغرفة التي سيقيم فيها. غرفة مجاورة لغرفتها، وكانت صغيرة. وشكت ايريس في أن يجد الراحة في سرير ضيق، لكنها صرفت النظر عن اقتراح غالورت في أن تجلبا سريراً أكبر من الغلّية قائلة:

ـ لا داعي إلى ذلك ما دام باقياً وقتاً قصيراً.

ردت غالورت بمعارضة واضحة:

ـ لكن قدميه ستخرجان من أسفل هذا السرير.

تجاهلت ايريس هذا وراحت تحضر له الفراش وقد وضعت أخشن فراش وجدته، فازداد عبوس غالورت:

ـ كان هذا الفراش لوالدة الآنسة بورتشيل.. نحن لم نستخدمه قط لذا يجب غليه وغسله جيداً أولاً.

ـ إذا كان متشرداً فسيكون معتاداً على ما هو أخشن من هذا.

أنهت ايريس توضيب السرير، وربتت عليه برضى بارد، وهي تفكر في رامزي الذي سيقضي ليالي متململة فيه.

لكن ما زاد تكدرها أنه أبدى سروره بالغرفة الصغيرة حين رآها.. وعمّ وجهه الشكر والتواضع.. ولم يكن هذا هو ما تبحث عنه.. فهو لن يقاسي الأمرين عقاباً له على خطاياه ما دام يشعر بامتنان غامر لكل ما تقدمه له

لم تجد الرد على حيرتها إلا بعد انتهاء العشاء الذي التهمه بجوع.. كان رامزي في غاية الهدوء ولم يقُل كلمة طوال الوجبة. يبدو أنه تذكر أن الطبيب قال له إن ايريس هي مالكة «موراديج» فسألها إذا كان بإمكانه التحدث إليها على حدة.. كادت ترد بأن عليه قول ما يريد أمام غالورت ولكنها عادت فترددت.. وخفق قلبها حذراً.. فلنفترض أنه تذكر شيئاً؟

يجب ألا تسمعه غالورت.

اقتادته إلى غرفة الجلوس وخفقات قلبها تتسارع. لم تطلب منه الجلوس فالرجل الذي تعرفه كان سيجلس ولكن رامزي لونغ الجديد المتردد ظلّ واقفاً.. ظلت عيناها باردتين وهي تجلس على أريكة.

شعرت أنها ممثلة فعلاً إذ رفعت بصرها عما تظاهرت أنه استغراق في تأمل النار في المدفأة، ونظرت إلى وجهه الملهوف القلق.. وكادت تقهقه.. كان رامزي قانطاً غير واثق من نفسه وكبرياؤه ممرّغة في التراب..

سمحت لعينيها بإظهار شيء من الكبرياء والتعالي وسألته: «نعم؟»

أخيراً تكلم وكان الواضح أنه يجد صعوبة في هذا.

ـ أردت الاعتذار على الإزعاج الذي سبّبه لك قدومي إلى هنا.. ولكن منذ الآن فصاعداً سأحاول ألا أكون مزعجاً.

بدا ذليلاً إلى درجة أنها انتفضت ألماً.. إنها بحاجة إلى وقت لتعتاد على رامزي الجديد..

ردت بهدوء:

ـ يجب ألا نقلق على هذا.. كان عليك الذهاب إلى مكان ما.. بإمكاننا أن نتحملك بضعة أيام.

وجاء دوره لينتفض ألماً مع أنه لم يجد شيئاً غير منطقي في كلامها..

قال: «وأردت أن أقول أيضاً إنني سأعوضك عن كل الإزعاج ما إن أستعيد ذاكرتي».

كان ذكره للتعويض هو كل ما يلزم ايريس ليزيد من إشعال غضبها.. يا للحيوان! النذل الوغد! هل يعتقد أنها تفعل كل هذا من أجل المال؟

قالت باحتقار أربكه بوضوح:

ـ يجب أن أتأكد إن كان لديك مال.. قبل أن أقبل بوعدك.

تورد وجهه بشدة:

ـ أعتقد.. أنني أستحق هذا. وأنا أوافقك الرأي، فقد أكون فقيراً معوزاً.. وهذه ليست مخاطرة يجب أن أطلبها منك.

ـ لكنك تطلب.. أليس كذلك؟

ارتحل اللون عن وجهه تاركاً إياه رمادياً محطماً:

ـ وهل لي خيار آخر؟

سرّها سماع نبرة الإحباط والمرارة في صوته وردت بلسان سليط: «لا».

نظر إليها متوسلاً وعيناه مغرورقتان بالعذاب:

ـ أتمنى على الله ألا يطول الوقت كثيراً.. لا يمكنك معرفة شعور المرء عند مواجهته جدراناً مقفلة، ولكني آمل أن أجد من يعرف هويتي.

ـ وما الذي يجعلك تعتقد أن على أحد أن يعرفك؟ ربما تكون نكرة.. وربما ليس لديك عائلة، أو أي شخص يرغب في التعرف إليك؟

تقبل ملاحظاتها الساخرة بلا تذمر وهذا ما أذهلها.

ـ أنت على حق بالتأكيد.

أحنى كتفيه العريضتين، ومرر يده في شعره الأسود الكثيف بعجز.

عكس صوتها الحاد كراهيتها له:

ـ والآن.. إن انتهيت من كلامك أقترح عليك أن تتوقف عن الأسى على نفسك، وعد إلى المطبخ. وما إن تصبح أفضل حالاً حتى أجد لك الكثير من العمل. لهذا عندما تستعيد ذاكرتك وتكتشف أن لا مال لديك، لن تحمل وعدك لي في ضميرك!

لماذا لم تخطر ببالها هذه الفكرة؟ لقد قالت غالورت إنهما بحاجة إلى رجل هنا؟ ستجعله ينظف المباني الخارجية، وكل الأملاك.. ولسوف تجعله يعمل كالعبد!

منذ قرع رامزي باب دارها أخذت تصغي إلى كل نشرة أخبار.. فهي تعرف أنه رجل مهم هنا وفي الخارج، وهي متأكدة أنهم في النهاية سيعلنون عن اختفائه. ولكن مرت الأيام ولم تسمع شيئاً عنه فاستنتجت أنه

ترك أميركا لأسباب خاصة.. ولا أحد حتى الآن يشك في أنه مفقود.

في الصباح التالي على عودته من المستشفى وجدته في المطبخ عندما نزلت لتناول الفطور فدهشت.. وقالت ببرود:

ـ لقد استيقظت باكراً؟

قال بهدوء: «ذكرت لي شيئاً عن العمل».

وتقبل طبق البيض واللحم من غالورت بكلمة شكر قلقة..

قالت ايريس بحدة: «لا بأس بذاكرتك أحياناً».

مع أنه نظر إليها بسرعة ولكنه لم يكن عابساً:

ـ أجل.. أوافقك الرأي. أستطيع تذكر كل ما فعلوه من أجلي في المستشفى.. أما ذاكرتي قبل مجيئي إلى هنا ففارغة.

لوت شفتيها عامدة متعمدة:

ـ يا للعار! أم لعل فقدانك الذاكرة نعمة مخفية؟

وضع سكينه وشوكته من يده وكأنه فقد شهيته:

ـ كيف يمكن أن يكون هذا؟

لم يوقفها الإحساس بالخجل عند حدها ولا تعابير غالورت الدهشة.

ـ قد تكون مجرماً.. ولا تدري!

ـ لكن الشرطة لم تجد شيئاً.

ـ ربما قتلت زوجتك أو تركتها مع دزينة أولاد تربيهم..!

شهقت غالورت من فرط الصدمة: «آنسة ايريس!»

سرعان ما لاحظت ايريس غلطتها فقالت إنها آسفة. ولكنها لم تكن أسفة، وأدركت أن رامزي عرف هذا.. مع ذلك كان كلامها إنذاراً لها.. فعليها مهما كانت الظروف ألا تجعل غالورت تشك في شيء مما تفعله.. في المستقبل ستحتفظ بكلماتها السليطة حتى تنفرد به.

وتمنت لو أنه لا ينظر إليها هكذا.. فأثناء وجبة الفطور لم تكد عيناه تفارقان وجهها.

أخيراً سألته: «هل تشعر بالقدرة على العمل هذا الصباح؟»

بدا بعيداً عن العافية فعلى وجهه آثار التعب وفي عينيه كآبة وكأنه لم ينم كثيراً.. وهذا بسبب سريره أكثر من أي شيء آخر. حاولت تصوره في السرير الضيق ففشلت.. وركزت بدل هذا على طريقته الخسيسة في طردها.. ونجحت كثيراً حتى أنه حين قال إنه سيتمتع بعمل أي شيء، لم تجادله..

قالت: «من الأفضل أن تأتي معي إذن».

حملت غالورت إليه ثوب عمل تركه مرة عامل كان يعمل عندهم.. قال لها شاكراً إنه سيأتي بملابسه متى سنحت له الفرصة.. لكن ما إن لمح نظرة ايريس الساخرة حتى امتقع وجهه خجلاً.. وأدركت ايريس أنها تستطيع الإيحاء بأشياء كثيرة بدون كلام. صحبته إلى مخزن الغلال الكبير حيث عملا معاً طوال اليوم ولم يستريحا إلا وقتاً قصيراً لتناول الغداء عند الخامسة وكان التعب بادياً على رامزي فعلاً فقررت التوقف عن العمل، وقالت ساخرة:

ـ تعال ابولو.. لست قوياً بما فيه الكفاية بالنسبة لرجل ضخم مثلك، أليس كذلك؟ من الأفضل أن ننهي عملنا اليوم.

اسودت عيناه: ستتحسن صحتي بعد يوم أو يومين.

ـ كيف ترى اسمك الجديد؟

رفع حاجبيه:

ـ ابولو؟ أعتقد أنه اسم جيد كأي اسم آخر حتى أعرف اسمي الحقيقي.

اقترحت فجأة: «من الأفضل أن تستحم».

كان خارجاً من الحمام عندما كانت تهمّ بالدخول. شخص ما في المستشفى أعطاه روباً قصيراً، أصغر من حجمه بكثير.. فأشاحت بوجهها عنه مسرعة. إنه بحاجة إلى حلاقة لحيته، لكنها لن تزوده بآلة حلاقة!

صاحت به: «لقد أخذت وقتك.. أليس كذلك؟ يجب أن تتذكر أن لدينا حماماً واحداً».

غطى الاحمرار بشرته بشكل مؤلم.. وضم فمه القوي بشدة.. إنما للحظات. استولى عليه مرة أخرى تعبير العذاب ولم تر أثراً لأي غضب كان يمكن أن يظهره لكلامها..

تمتم: «أنا آسف».

ما الذي يراه فيها لينظر إليها بحدة هكذا؟ في أوقات متفرقة من اليوم أحست بحدة نظراته، وهذا ما جعلها متوترة.. بدا وكأن شيئاً في عمق ذاكرته يناضل لينبره بشيء ما حولها.. وقالت لنفسها: حسناً وماذا يهم لو تذكر؟ وتجاوزته وهي تهز رأسها..

في الأيام التالية تابعا العمل معاً في الأبنية الخارجية. ورغم عودة قوى رامزي إليه بالتدريج تابعت ايريس معاملته وكأنه عبد لها تأمره بطريقة حيرت غالورت.

عندما حملت إليهما القهوة إلى مخزن الغلال ذات صباح أنبتها غالورت:

ـ إنه رجل ناضج عزيزتي.. وإن لم تكوني حذرة انقلب عليك.

انزعجت ايريس من كلام غالورت:

ـ أوه.. هذا لا يزعجه بل هو لا يلاحظ شيئاً في العادة.

وابتسمت وهي تتناول إبريق القهوة والبسكويت من غالورت.. وأردفت:

ـ ليس العمل الكثير أسوأ من الجلوس مكتئباً وهذا ما سيميل إلى فعله إذا لم أستمر في تذكيره.

ـ تذكيره بماذا؟

ـ بهذا وذاك.

رابتعدت غالورت والشك ظاهر عليها.

نادت ايريس دونما اكتراث: «تعال وخذ القهوة ابولو!»

لاحظت يديه عندما تناول فنجانه.. إن يديه عادة رائعتي الشكل لا تشقق فيهما.. أما الآن فبشرته مشققة خشنة وأظافره ملطخة ممزقة..

تساءلت لماذا آلمها منظرهما.

سألته بحدة: «ألا تغتسل أبداً؟»

رأى نظرها مركزاً على يديه، وفهم بسرعة:

ـ هذا بسبب البرد وطبيعة العمل الذي نقوم به.. لقد اقترحت غالورت عليّ أن أستعير منك كريماً عازلاً.

صاحت: «ومن سيدفع ثمنه؟»

نظر إليها محبطاً غاضباً وتمتم:

ـ لم أكن لأطلب منك شيئاً.

ردت بلؤم: «هذا أفضل».

أرجع فنجان قهوته إلى الصندوق المقلوب الذي يستخدمانه كطاولة، وكأن القهوة لم تعد تهمه.. وقال بعينين كئيبتين:

ـ سأتابع العمل.

ـ لا. كنت أفكر أن من الأفضل ما دام الطقس صحواً أن نبدأ بإصلاح السياج حول الحقل، وبتنظيف الأرض.. بإمكانك إنهاء المكان هنا حين تمطر. فلتذهب ولتلق نظرة.

لحق بها بدون أن يحتج. سألها بلهفة وهما يتفحصان الحدود:

ـ متى قلت إنك ستبيعين المزرعة؟

ـ في الربيع.. وهذه أرض صغيرة.

تمتم وقد توقفت خطواته العريضة، وأمسك بذراعها:

ـ في الربيع.. وماذا سأفعل أنا؟

حل محل الانتصار السريع الذي أحست به ايريس عند سماع الذعر في صوته الخوف، وفي هذا الوقت كانت شرارات من أصابعه تقفز إلى جسدها كله.. ورأت أنه لا يحس بشيء، فشعرت بالسخط فهذا يبرهن أن المشاعر القديمة كانت من جهتها فقط..

ردت دونما اكتراث:

ـ لا أدري ما ستفعل.. لا نتوقع أن نعتني بك أنا وغالورت إلى

الأبد.. تذكر أنك كنت رجلاً، وحاول أن تستجمع نفسك.

ازداد عمق الاحمرار على وجنتيه إلى درجة الإحراج المذل، ثم ارتدّ وابتعد عنها.

ـ أنا آسف آنسة هالستون.. أنت على حق.. ربما سأطلب نصيحة الطبيب حين يأتي لزيارتنا.

ـ عمّ؟

ـ عن مستقبلي على ما أعتقد.

كان الحقل والسياج في حالة جيدة نسبياً.. السياج بحاجة إلى بعض الإصلاحات في أمكنة متفرقة وإلى قليل من الترتيب.. قال رامزي إنه سيباشر العمل به فوراً، مع أن ايريس تعرف أنه لا يعرف شيئاً عما سيفعل.

بعدما أخبرته أين يجد المسامير والشريط الشائك، عادت إلى المنزل.. كان أمامها عدة أشياء تقوم بها، ولقد وعدت غالورت بالذهاب إلى السوق.. فمن الجيد الابتعاد قليلاً عن «مورايدج». فجأة أحست أنها تكاد تختنق.

ماذا قصد رامزي بقوله أنه سيتحدث إلى الطبيب عن مستقبله؟ كانت تفكر في هذا وهي جالسة أمام نار غرفة الجلوس بعد العشاء ذلك المساء.. كانت الغرفة دافئة وحاولت عدم التفكير في الوحدة التي تشعر بها وهي جالسة بمفردها.. قبل مجيء رامزي كانت تجلس مع غالورت في المطبخ بعد حلول الليل.. كانت غالورت تقول إنها لا تجد نفسها في المكان الصحيح وهي تجلس في غرفة الجلوس ولن تقتنع بالعكس.

وكانت ايريس تعرف أن غالورت تتساءل باستغراب لماذا لا تطلب من رامزي الانضمام إليها في غرفة الجلوس بعض الأحيان.

كانت تسمع صوت رامزي يتحدث إلى غالورت في المطبخ، وتنهدت.. كان صوتاهما خافتين ولكن المنزل صغير لذا لا تشعر بالعزلة كلياً.. ظنت مرة أنها سمعته يضحك فأجفلت لأنها لم تره يبتسم منذ جاء إلى هناء كبتت اندفاعاً للذهاب إلى المطبخ ولرؤية ما يجري.. وذهبت

إلى النوم.

بعد عشر دقائق وفيما كانت خارجة من الحمام وهي مرتدية الروب، كادت تصطدم به.. امتدت يده للمرة الثانية ذلك اليوم تمسك بها، ولكن في هذه المرة ليقلّل من تهاويها عليه.. فوثبت أحاسيسها المتوترة بشكل خطر وصاحت عن غير وعي:

ـ لا تلمسني أبداً!

ـ أنا.. آسف.

وتقبل اللوم على صدامهما بكل تواضع.

تابعت تهجمها عليه:

ـ ألا تنظر أبداً أمامك؟ أم لعلك نسيت أيضاً أين هي قدماك كما نسيت كل شيء آخر!

اشتدت بشرته التي كانت منذ بضع ساعات في الهواء البارد وأخذت لوناً عميقاً.. بدت عيناه مسمرتين عليها ثم طافتا بها عدة مرات، تستوعبان جمالها الفتيّ النظيف.. كانت خلال النهار تعقص شعرها إلى الوراء.. ولكنه الليلة منسدل في ستارة برّاقة حول كتفيها.. وعيناها الزرقاوان مشعتان بحيث لن يتمكن من نسيانهما أبداً.

سخرت منه: «ألم يسبق أن رأيت امرأة؟»

رد رامزي متلعثماً:

ـ أعتقد أنني رأيت.

ـ ولا تعرف ماذا فعلت.. أليس كذلك؟ أنت تعتقد دائماً فقط!

رد بارتباك: أنت من توقعت أن يكون عندي دزينة أولاد آنسة هالستون.

ردت غير صادقة:

ـ كنت أحاول مساعدتك!

ـ هكذا إذن.. هل لديك صديق.. ايريس؟

صدمها تهوره في السؤال:

ـ لا! ولا أريد أن يكون لي صديق.

عبس ببطء وقال كأنما يحدث نفسه:

ـ ولكنك شابة.. وجميلة جداً..

اشتدت قبضتاها: عشت تجربة سيئة.

تعاظم الغضب في صدرها عندما لم يرف له جفن.. نعم لقد طافت عيناه بها بطريقة مألوفة حتى شعرت بالخوف.

تعمّقت تقطيبته: فهمت.

أبعدت نفسها عن يديه غاضبة:

ـ مع أنك لم تفهم.. أليس كذلك؟ قد تتظاهر بأنك فهمت لكنك لا تفهم شيئاً على الإطلاق.. أنت لا تدخل شيئاً في رأسك السميك هذا لأنني أعتقد أنك خائف مما قد تجد! أنت نصف رجل.. ورجل كريه.

تمتم بفظاظة:

ـ نصف رجل؟ بعد أن انتقصت من قيمتي الفكرية.. هل تحاولين أن تتحديني لأثبت لك صلاحيتي الجسدية؟

ذكرها صوته الرقيق برامزي القديم، فعلقت أنفاسها في حنجرتها، وكانت الصدمة أكبر من أن تتحملها.. انتقت كلامها بحذر هذه المرة.

ـ لا تقلق.. أنا لا أطلب منك إثبات نفسك بأية طريقة.

رد بصوت خفيض: «لكنك أثرت فضولي!»

ـ فضولك؟

بدا وكأنه غير قادر على كبت نفسه إذ مد يديه وشدها إليه.. وعندما أطبقت ذراعاه حولها، تذكرت ايريس تحذير غالورت التي قالت لها إنه قد ينقلب عليها فرنت تلك الجملة في أذنيها المذعورتين. صاحت: «دعني!»

حاولت وضع شيء من السلطة في صوتها. ولكنه تجاهل توسلها وقال بصوت أجش:

ـ كنت مشغولاً في التركيز على ذاكرتي.. ذاكرتي التي فقدتها.. فلم أفكر في شيء آخر.. ربما يجب أن أحاول معرفة ما أنا قادر عليه في

اتجاهات أخرى.. هذا إذا عدت إلى زوجة ودزينة أولاد.. آنسة.. ايريس!

قبل أن تتحرك أطبقت ذراعاه عليها.. لقد نسي أموراً كثيرة ولكن العناق ليس من بينها فقد جالت يداه عليها بوحشية، وكأن منظرها كان يعذبه سراً.. أما هي فاشتعلت فيها المشاعر فوراً ولكنها لم تعرف ما هي ردة فعله.. وكم أذهلها أنه ما زال قادراً على مثل هذه السيادة المغرية.

حاولت مقاومته، ولكن مقاومتها زادته جرأة.. كانت الصدمة تلو الصدمة تسري في جسدها فقد أصبحت عاجزة أمامه ولم تعد أطرافها النحيلة سلاحاً يجدي في محاربته.

عندما حررها ترنّحت غير قادرة على الكلام، ورفعت يداً مرتجفة إلى خدها الملتهب وبانت دموع الغضب في عينيها.

بدا رامزي غير متأثر.. كانت عضلة واحدة تتحرك على فكه وكأنه تحول إلى تمثال حجري، ثم قال:

ـ أنا آسف. لا أعتقد أنك ستتركينني أقيم هنا بعد الآن؟

كانت ستسامحه لو اعترف أن مشاعره تغلبت عليه.. ولكنها لا يمكن أن تتسامح مع مثل هذا الجمود البارد. اقتنعت أكثر فأكثر أن أية مشاعر كان يكنها لها ماتت.. وهذا أمر عادي مع معظم الرجال.. إنه لا يعرف من هي بسبب الحادثة.. لكن المشاعر غير محكومة بالعقل.. مرة أخرى أدركت أن فرصتها الوحيدة للانتقام تكمن في الإذلال الذي سيعانيه يوماً حين يعي نوع العمل الذي قام به هنا.

لم تردّ على توسله بل ارتدت على عقبيها صافقة باب غرفتها وراءها وتركته ينضح عرقاً من الخوف طوال الليل. سيزيد هذا من عقابه.

لم تنضح ايريس عرقاً في الليل المظلم الطويل ولكنها وجدت صعوبة في الراحة. أخيراً وهي تزدري اضطراب مشاعرها، بدأت تفكر في وسائل جديدة لتعذيبه.. وسائل بسيطة ستجعل من حياته جحيماً لا تطاق.

في الصباح التالي اعتذر رامزي مجدداً وكان أشدّ منها شحوباً.. لم

تكن ايريس قد نامت وهو أيضاً على ما يبدو لم يذق طعم النوم.. الآن اختفى كل تبجحه وشجاعته.. وبدا محطماً معذباً ومتألماً.

قالت له بحدة أن ينسى الأمر ويتابع عمله.. وأن ينهى إصلاح السياج في الحقل ثم صرفته.

سألت غالورت بعد قليل: «هل نسيت أن الطبيب قادم اليوم؟»

لسوء الحظ أنها نسيت الأمر فهي لا ترغب أن يراه الطبيب وهو يعمل في الخارج في يوم كهذا.. كان الطقس بارداً، ولكن بدل الجليد الذي كان يسيطر على الأرض بالأمس كان هناك فوق المستنقعات ضباب خفيف كثيف كثافة تقدر على بلل أي رجل في وقت قصير.

قالت مندفعة: «سأذهب لأجيء به».

ولكن قبل أن تصل إلى الباب كان الطبيب يدخل منه.

* * *

شرحت ايريس الأمر وهي تتلعثم:

- ابولو.. في الخارج.. وكنت في طريقي لأحضره.

ارتفع حاجبا الطبيب:

- في الخارج؟ أعتقد أنه ذهب في نزهة مع أن اليوم غير صالح لها.

مرت ايريس من أمامه بحذر: «لا.. لكنني أعرف أين أجده».

ابتسم: «سأرافقك».

- ألا تفضل البقاء لتناول فنجان قهوة مع غالورت؟

لم تتكلم غالورت، وظلت عابسة بشدة.. في تعبير وجهها شيء ما جعل الطبيب يصرّ على قراره:

- من الأفضل أن نتناول القهوة معاً بعدما نجده.. فهذا سيمنحني فرصة لأراقب كيفية تقدمه.

أحسّت ايريس بأعصابها تتقلص وأرادت الصراخ، فاستسلمت على مضض.. لماذا لم تقل لهما الحقيقة؟ فلن يتعاطفا معه لو عرفا ما فعله بها.

وجدا رامزي في الحقل يغرز أعمدة خشبية في الأرض. كان يرتدي قميصاً تبلل كله.. كان قد خلع ثياب العمل التي لوثها الطلاء، وتعرف ايريس أنه لا يملك سوى الثياب التي عليه الآن.

نظر الطبيب إليها بحدة: «أما قلت إنه خرج للنزهة؟»

- لم أقل هذا بل أنت استنتجت ذلك.. لن يضرّه بالتأكيد بعض العمل.

- المسألة مسألة الطقس، وليس العمل.. أليس لديه معطف؟

- لا.

ضم الطبيب شفتيه:

- ولا مال لديه ليشتري معطفاً. ايريس من الأفضل أن ترافقيني إلى القرية قبل أن نذهب إلى أي مكان آخر. قلة من الناس في هذه الأيام يملكون ما يكفي من مال، مع ذلك كلما أقامت الكنيسة مزاداً خيرياً نجد فيه ثياباً مستعملة في حالة جيدة.. ولدي كومة منها مخزونة للمزاد التالي.. أنا واثق بأن لا أحد سيعترض إن جلبت بضعة أغراض لمريضي.

فكان أن عادت ايريس إلى «موربدج» فيما بعد بحقيبة محمّلة بالثياب.. اختارها الطبيب في الواقع وكلها في حالة جيدة، مع أنه يخشى أن تكون ضيقة عليه قليلاً.. وكشف لها أن هدفه الحقيقي من وراء اصطحابها تعريفها على العيادة وما يجري من عمل فيها، استعداداً لعملها الجديد معه.

كان رامزي شاكراً له على الثياب وعندئذ أدركت كم كان يزعجه افتقاره إلى الثياب وعندما فكرت في كل البذلات الرائعة التي يمتلكها كادت لا تصدق أنه مسرور جداً بمثل هذه الثياب الرثة الضيقة.

في الصباح التالي، حين وصل الطبيب ليكمل الزيارة التي قطعها بالأمس، شكره رامزي وهما يجلسان حول مائدة الطعام في المطبخ. هز الطبيب رأسه موافقاً على السترة التويد السميكة التي كان يرتديها ثم أخذ يحادثه عن أمور عادية.. ذكر عدة مواضيع وأماكن، أما ايريس فكانت

تصغي وهي تحبس أنفاسها.. لكن سرعان ما أتضح أن لا شيء مما قاله الطبيب وجد صدى عند رامزي.. تحركت ايريس متململة وهي ترى أن الطبيب حائر به.

تمَّ الاتفاق على أن تبدأ ايريس العمل يوم الاثنين القادم.. بعد مناقشة الأمر غادر الطبيب.. وبسبب عمله في العيادة صباحاً ومساءً، كان عملها في النهار سينقسم إلى مناوبات مدة كل منها ثلاث ساعات، على خمسة أيام في الأسبوع. في صباح يومها الأول في العمل، وقبل أن تغادر المنزل، أعطت رامزي لائحة بما عليه القيام به قبل عودتها ووعدها ذليلاً أن يفعل ما بوسعه.

عندما اتضح لها مع مرور الأيام أنه كان يهلك نفسه ليتم العمل الذي تطلبه منه أخذ إحساسها بالتسلط يتضاعف أكثر فكان أن زادت طول لوائحها.

قالت غالورت محتجة:

ـ لا داعي لكل هذا! ماذا تحاولين فعله بالمسكين عزيزتي؟ بالأمس لم يتوقف إلا فترة وجيزة لتناول غداء سريع.. وكان كل ما تناوله سندويشاً.

ردت ايريس بحدة: «إنه محظوظ لأنه يحصل على هذا! على أي حال لا مال لديه!»

تنهدت غالورت التي كانت مؤمنة أن هذا هو سبب قسوة ايريس على رامزي:

ـ هل أنت قلقة على هذا، آنسة ايريس.. ألا يمكنه الطلب من الضمان الاجتماعي مساعدته؟ على الأقل قد يقدمون له النصيحة؟

قالت ايريس ببرود: «هو ليس بحاجة إلى هذا النوع من النصيحة».

كانت تأخذ خمسة جنيهات في الأسبوع لإعالته من المال الذي تركه لها عندما طردها من بيته، المال الذي أراد منها أن تستأجر به شقة إذا ما طردتها غرايس. في الواقع أنها لم تكن تريد أن تمس ذلك المال، ولكن مدخرات غالورت لم تكد تتجاوز المئة جنيه، لهذا رفضت ايريس أن

تمسها. الجنيهات الخمسة والعمل الذي يقوم به لها سيستعبدان ضميره يوماً.. وظنت أن هذا اليوم لن يأتي قبل وقت طويل.

مع أن ايريس استمتعت بعملها الجديد، إلا أنها لم تكن مستريحة للمسافة الطويلة التي كانت تجتازها سيراً على الأقدام من وإلى منزلها خاصة في الظلام.. صحيح أن السير على الأقدام يمنحها فرصة للاسترخاء بعد مساء متعب في العيادة، لكن كل ما تكسبه من راحة، كانت تبدده كآبة وجه رامزي وتأنيب غالورت لها حين تصل مورايدج.. كان الطبيب قد عرض أن يقلّها إلى المنزل، لكنه غالباً ما يضطر إلى الخروج في دعوات طارئة بعد موعد العيادة لذا وجدت أنها غير قادرة على أن تطلب منه المخاطرة برفاصات السيارة على وعورة الطريق.

ثم أصبح رامزي يأتي ليرافقها.. وعندما سألته عن السبب قال متردداً:

ـ نحن قلقان عليك.

ردت بغضب: «لا داعي لهذا».

وتخلصت من يده التي مدها لها ليساعدها على المرور فوق حفرة في الطريق.. لا تريد أن تشعر بالذنب.. فهو آخر من تريد أن تشعر تجاهه بالذنب!

سألها فجأة: «لماذا تكرهين أن ألمسك؟»

لأنها تتذكر مدى تأثيره فيها، أرادت أن تجرحه بأكبر قدر ممكن.

ـ لقد سبق أن قلت لك يا ابولو.. تعوزك المخيلة.. لماذا برأيك تكره فتاة مثلي متشرداً مثلك؟

رد بفظاظة وكأن شيئاً في داخله يتمرد:

ـ لا تسمِني هكذا! أوه.. نعم قد أكون متشرداً، ولا أستحق أن ألعق حذائك، لكن.. لدي اسم! فمؤخراً بدأت أسمع اسماً آخر.. في مكان ما من رأسي ويصل تقريباً إلى طرف لساني.. آه! يا إلهي!

تأوه ثم توقف في الظلام ليمرر يداً مرتعشة على رأسه:

ـ لماذا لا أستطيع أن أتذكر؟

ذعرت ايريس في الظلام.. عرفت أن كل ما عليها أن تقول هو اسم رامزي.. وهذا بحد ذاته جلب إليها موجة ارتباك..

صاحت: «حباً بالله! لا تبدي مثل هذه الحساسية أمامي! وهل يهم ما يدعى مخلوق وضيع مثلك.. لكن إن كنت لا تحب اسم ابولو فلا مانع عندي من مناداتك بأي اسم آخر.. فلست من سماك به أصلاً.. هن ممرضاتك في المستشفى».

أذعن بخنوع، وتلاشى البريق الغاضب من عينيه.

ـ أنا آسف.. وكما تقولين، ما همّ حقاً إذا كان اسمي بيتر أو دايفد أو هانك؟

ـ ماذا كانت تدعوك صديقتك.. عجباً؟

كان قد سيطر على نفسه الآن، وتنهد:

ـ ربما حدث ذلك منذ أمد بعيد.. لذا أنا معذور إن لم أتذكر. وأعتقد أنني بعدما جعلت زوجتي تنجب دزينة أولاد، لم تعد تدعوني «حبيبي».

ضربت قدمها بالأرض بغضب:

ـ ألا يمكن أن تنسى أنني قلت لك هذا؟

لكن الطريقة التي كان يتكلم فيها أزعجتها.. قد يكون مزاحه فظاً كانت تلمح شعلة من السخرية القديمة فيه، ولكنها واثقة بأنه ربما لم يتذكر اسمه حتى الآن.

قال لها بجفاء: «لا أعتقد أن من المجدي أن أقترح عليك مناداتي بالمحبوب.. لقد قلت إنك قد لا تمانعين بمناداتي بأي اسم».

ـ لا.. لا جدوى من هذا! لن أدعوك أبداً بهذا الاسم!

اغتاظت كثيراً وتابعت طريقها وهي تتساءل لماذا عبس فجأة.

لم يكن لهذا الشجار أهمية كبرى، لكن الشجار التالي كان مهماً.. مرت الأيام وعاد رامزي إلى قنوطه.. في الصباح التالي على شجارهما

اعتذر كالعادة وتوسل إليها بذل أن تسامحه، فحاولت ألا يربكها تذلله. مع ذلك ورغم العذاب الذي يعيش فيه رأت أنه فعلياً يبدو أقوى مما كان عليه في الفترة الماضية.. عندما نظرت إلى المرآة رأت أنها هي التي كانت أكثر شحوباً وقلقاً، فكثيراً ما تكتنفها الوساوس حول المستقبل.

جعل رامزي المكان في أحسن حال.. بعد وقت قصير لن يعود أمامه ما يفعله.. إنه الآن مشغول في ردم الحفر على الدرب، من كومة حصى كانت مغطاة تقريباً بالعشب.. اقترح رامزي فيما لو تمّ إصلاح الطريق أن تستخدم ايريس الدراجة التي وجدها في السقيفة وأصلحها، فهذا سيوفر عليها السير الطويل عدة مرات في اليوم.

راقبته يعمل على إصلاح الطريق بمشاعر مختلطة. عندما قبلت به في منزلها لم تفكر في غير الانتقام.. أما الآن وبعد عدة أسابيع، بدأت تشعر بالندم ومع مرور الأيام وجدت أن قلقها يتزايد. وأحياناً في الأمسيات حينما تجلس في وحدة أمام مدفأة غرفة الجلوس، كانت تجد دموعاً مربكة تجري على خديها.. مؤخراً اضطرت إلى الاعتراف بأن القول القديم عن لذة الانتقام هو زائف تماماً.. فمهما حقق المرء من انتقام فهو لا يفعل شيئاً لإراحة قلبه المتألم.

لم تكن في مزاج رائق حين قام رامزي باقتراح جديد.. قال إنها قد تكون فكرة جيدة شراء بعض المواشي للحقل وبعض الدجاج لمخزن الغلال.. ذكر لها هذا حين جاء ليرافقها وهي عائدة من العيادة.

كان الليل بارداً بشكل خاص.

ـ هل أنا مضطرة دائماً أن أذكرك أن لا مال لدينا؟

رد بثبات وكأنه مصمم على الوقوف في وجه غضبها: لم أنس هذا.

وتابع القول إنه كان يكلم أحد جيرانهم المزارعين الذي قال له إنه مستعد لاستئجار الحقل إذا اعتنى رامزي بالمواشي. فسألته ساخرة:

ـ وماذا تعرف عن العناية بالمواشي؟

ـ ليس الكثير.. ولكنني أعتقد أن كل ما يريده هيرندون مني، هو أن

أعدها بين الحين والآخر.

ردت بعناد: «لن يكون الأمر مربحاً على أي حال، فأنا سأبيع المنزل في أسرع وقت ممكن».

- ألن تغيري رأيك بشأن البيع؟

أمسك ذراعها وتوسل إليها بلهفة:

- لقد أنهيت كل ما أستطيع إنجازه هنا.. لكن لو تمكنت من الحصول على عمل في مكان آخر لأكسب أجراً كل أسبوع، ألن يكون من الممكن استبقاء «مورايدج»؟

خفق قلب ايريس ألماً.. ألا يعرف ماذا يطلب؟ ولأنها لا تجرؤ حتى على التفكير في الأمر، أجبرت نفسها على السخرية منه:

- وأي عمل ستجده وذاكرتك على ما هي عليه؟

- لست واثقاً ايريس.

وكانت المرة الأولى التي يناديها باسمها.

أردف: لم أكن أنوي النظر عالياً.. فأنا أدرك حدودي. ولكنني أعتقد أنني سأجد من يوكل إليّ عملاً كالذي أقوم به حالياً.. ليتك تتعلمين أن تحبيني قليلاً فعندئذ سنكون جميعاً سعداء.

- لا يمكنني أن أحبك أبداً. لا.. لن أستطيع حتى الإعجاب بك. ألم تفهم هذا حتى الآن؟

إنها تشعر بعذاب ضمير شديد لذا لن تتحمل جريمة دفعه للعمل عند أحد سواها.

قال والهزيمة في صوته:

- أجل.. لا تقلقي.. لن أستطيع اتهامك بأنك تعطينني أملاً زائفاً.. لقد بذلت قصارى جهدي لإرضائك.. ولكنني أدرك الآن أنك لا ترين فيّ أكثر من مصدر إزعاج.

في كلامه ما قبض على قلب ايريس.. تمسك الألم بخناقها هذا عدا إحساس رهيب به بدأ يهدد بتمزيقها.. لماذا لا تستطيع التغلب على هذا

الجوع إلى أن تكون بين ذراعيه؟ ألا آخر لجنونها الأبله؟ لو استطاعت نسيان هذا وركزت على إذلاله لحققت لبنات جنسها انتقامهن منه فما تفعل به قد يصلح شخصيته الفاسدة.

لكن عندما حاولت الرد بحدة، منعها الإحباط المؤلم الذي بدا على وجهه، فتمتمت:

- فلنعد إلى البيت.. فستبلل.

في المنزل أبلغها أن غالورت أوت إلى فراشها بسبب رشح كانت تعاني منه طوال الأسبوع وأضاف أنه يعتقد بأن العدوى انتقلت إليه.. فهو يشعر بالتعب قليلاً.

نظرت إليه بسرعة وهما يدخلان المطبخ.. ورأت أنه شاحب الوجه.. فعيناه غائرتان ووجنتاه بارزتان.. بدا أكبر من عمره. ولأنها تكره هذا الإحساس صاحت بنفاد صبر:

- أليس الأفضل أن تذهب لتبدل ملابسك، وفي هذه الأثناء سأعود لأتفقد غالورت في غرفتها؟ يا ترى من سيرعاك إن أصبت بالأنفلونزا.

نظر إليها ثم ذهب ليقوم بما أمرته به.. حين عادت من غرفة غالورت وجدته في المطبخ وقد استبدل ملابسه المبللة بأخرى جافة.. كان يرتدي قميصاً وسروالاً ضيقاً قصيراً لم يكد يستطيع إقفال أزراره فقاومت ايريس لتخفي ضحكة السخرية.

قالت وهي لا تقدر على كبح ضحكتها:

- أتدري كم يبدو منظرك سخيفاً؟

لم يكن الانفجار الذي أعقب سخريتها متوقعاً لذا أصيبت بالخرس لعدة لحظات.. فقد اشتعلت عينا رامزي غضباً أخافها.. حاولت الاعتذار لكن قبل أن تتمكن من قول شيء صاح:

- أعرف كيف أبدو! يجب أن تكوني ممتنة لهذا.. فهو يعطيك سبباً آخر لتهزئي بي ولترمي المزيد من الإهانات في وجهي.

بدأت تقول: «أنا..».

قاطعها ونظرته تكاد تخترقها.

- أنت لا تهتمين.. أليس كذلك؟ لو جرفتني نيران الجحيم لما اكترثت بي. ألا تعرفين ماذا يعني للمرء أن يفقد ذاكرته؟ ألا تدركين صعوبة الأمر؟ إنه أشبه بمن أُعمي فكرياً؟ أو بمن اضطر إلى البدء من المهد مرة أخرى دون أبوين يحبانه ويرعيانه. وكأنك تقاتلين جداراً أينما أدرت وجهك.. والأسوأ من كل هذا هو القلق الذي يتآكل أحشاءك على أشياء يجب أن تعرفيها.. أجل.. نكتتك عن الزوجة والعائلة قد تكون بلا معنى، ولكن ربما لي عائلة.. ربما هناك من يحتاج إليّ حاجة ماسة.

صاحت بوجه أبيض:

- لو كان هناك من يحتاج إليك لسأل عنك.

سألها بشراسة: «وكيف لك أن تعرفي؟ ربما هجرت زوجتي وأولادي.. أليس كذلك؟ لا شك أنني فعلت شيئاً كهذا لأكون متجولاً دون بنس واحد. لعلي تركت عائلتي مهدداً بعدم العودة إليها أبداً.. وقد يكونون بحاجة لي..»

بدأ العرق يتفصد على جبينها:

- هناك.. هناك منظمات مختلفة مخصصة لمساعدة أمثال هؤلاء.

لم يبدُ عليه الاطمئنان:

- حقاً؟ وهل تعتقدين أن المنظمات والمال قد يعوضان عن العامل البشري؟ هل تفضل المرأة المال على رجل يضمها بين ذراعيه ليلاً؟

صدمها هذا كثيراً حتى كادت تجهش بالبكاء.. وذكرها بأن حبها اليائس له سيجعلها غير قادرة على الزواج برجل آخر ولعل هذا ما أشعل غضبها:

- اسمع! لا أظن أبداً أن هناك من يفتقدك.. فلا أظنك كنت شخصاً محباً ومخلصاً.

صاح وهو ينظر إليها باستغراب:

- تبدين واثقة من وقائعك!

وقفت ايريس للحظات مسمرة وشعرت بالخطر لأنها سمحت لغضبها بالتغلب على سرها، لكن غضب رامزي يخيفها وهي لا تدري كيف تتعامل معه. بدا أشبه برجل يكاد ينفد صبره لذا حذرتها غرائزها بألا تثير غضبه أكثر.

بذلت جهداً جباراً لوضع بعض القوة في صوتها:

- سأعد لك شيئاً ساخناً.. أنصحك بالإيواء إلى الفراش باكراً، فقد يفيدك النوم.. وأنا واثقة أنك في الصباح لن تجد أنك حزين على نفسك هكذا.

في اليوم التالي تساءلت وهي تسير بجهد إلى عملها كم يمكنها أن تتحمل بعد؟ بعد تقديم الفطور لغالورت في غرفتها.. اعتقدت أنها ستستمر بخططها حتى النهاية بالنسبة لرامزي، لكنها الآن باتت غير واثقة. في البداية، لم تصدق أنه سيمر وقت طويل قبل أن يستعيد ذاكرته ولكن من ناحية أخرى لا يبدو أنه يتحسن..

هذا الصباح عاد إلى هدوئه إنّما للمرة الأولى لم يعتذر منها بل لم يكلمها البتة.. فأخافها صمته. نعم لقد سأل عن غالورت ولكنه لم يضف كلمة أخرى إلى ذلك. لم تتحسن غالورت وظلت تلازم الفراش. اقترح رامزي أن تستشير الطبيب وأن تطلب منه المرور ليلقي نظرة عليها ووجدت اقتراحه صائباً.. وإذا لزم الأمر ستطلب إذناً للتغيب عن مناوبة المساء في العيادة، فغالورت بحاجة إلى عناية مناسبة.. وقد تقبل مساعدة الطبيب القديمة العودة إلى العمل في المساء، بعدما فقد الزوج الجديد عمله.

جاء الطبيب وقال إن من الأفضل لها أن تلازم الفراش بضعة أيام.. ثم وعد بمكالمة مساعدته القديمة، التي قد تقبل بمساعدته في العيادة.. وهذا ما سيخوّل ايريس ملازمة المنزل مساء.

بعد ظهر ذلك اليوم، سأل رامزي إذا كان بوسع ايريس إيجاد بعض الوقت لتلقي نظرة على الطريق حيث تتصل بالطريق العام.. ثم قال إنه سيقدّر لها نصيحتها.

كان منهكاً وأحست بأنها تتعاطف معه قلبياً وكم أرادت أن تلف ذراعيها حوله لمؤاساته.. وهذا ما لا يمكن أن تتسامح به.

هزت رأسها على مضض موافقة:

- سأقول لغالورت إلى أين سنذهب ثم أحضر قبعتي. هلاّ انتظرت قليلاً!

كانت نهاية الدرب الوعرة في غاية السوء حتى أنها نظرت إليها بريبة:

- حمل اسفلت قد يكون الحل المناسب.

نظر إليها رامزي عابساً:

- أجل.. لو أخذت بعض الحجارة من الجدار القديم قرب المخزن وكسرته لحللنا المشكلة بالحجارة المكسرة قبل وضع الحصى فوقها.

أدركت ايريس فوراً أن هذا هو البديل المنطقي، وتنهدت:

- كان يمكنك فعل هذا بدون استشارتي.

رد بفظاظة: لأعطيك عذراً آخر لتصبي غضبك عليّ.

نظرت إليه، إلى وجهه الأدكن وإلى عينيه اللتين تكادان تأكلانها بسخط.

- تبدو وكأنك مؤمن بأنني أفتش عمداً عن عذر.

شخر ساخراً فارتدت إلى الوراء.

قال: «من تحاولين خداعه ايريس؟ ربما يجب أن أعطيك مبرراً ملائماً».

شهقت محتجة فأمسكها بقسوة وشدها إليه.. عندما أبقاها ملتصقة به بدأت ترتجف وأصبحت غير قادرة على الحراك بسبب قوة ذراعيه.. تساءلت بذعر ماذا قد يفعل تالياً. كانت مقطوعة الأنفاس بحيث لم تستطع أن تتكلم.. هل ينوي معانقتها؟ تذكرت خائفة أن كل ما سيفعله هي مشتاقة إليه، ومهما حاولت منعه فستجد أحاسيسها تستجيب لكل الذبذبات التي تصل إليها منه.. بشكل لا إرادي تسللت ذراعاها لتلتفا بشدة حول عنقه.

فجأة جمدت.. كانت خائفة من قرب رامزي منها فلم تسمع صوت سيارة تقترب.. ولم ترتدّ إلا بعدما سمعت شخصاً ينادي بأعلى صوته باسمه..

وتابع الصوت نداءه:

- رامزي! رامزي لونغ! ايريس!

وكانت غرايس.. كانت ايريس مجبرة على العودة إلى الواقع، ثم أدركت أن رامزي عاد إلى الواقع أيضاً.. فعندما تركها سمعت شهقته.

سمعته يتمتم كشخص استيقظ من حلم سيء على حقيقة لا تصدق..

- رامزي؟ رامزي لونغ؟

غرايس التي كانت تصيح من السيارة، ترجّلت منها الآن. أعاد صوت صفق بابها إلى رامزي أحاسيسه.. وأحست ايريس بهذا.. فقد كان جسده القاسي يرتجف.. وكان بياض شفتيه وبريق عينيه دليلاً واضحاً على صدمته.. عندما كرر اسمه كان صوته ثابتاً وبدا مسيطراً على نفسه بشكل مؤثر. لم يكن هناك أدنى شك لدى ايريس في أن ذاكرته عادت إليه.. وكانت عودة الذاكرة كاملة.. ولكن ماذا أيضاً؟ حاولت ايريس وهي تكاد تفقد الوعي أن تحلل ردة فعله وتتصورها حين ينفردان.

تقدمت غرايس قائلة: رامزي.. حبيبي!

وراقبتهما ايريس.. وارتجفت لأنها فكرت في الاستنتاج الذي توصلت إليه غرايس لرؤيتهما متعانقين..

تابعت غرايس التي توقفت قربهما:

- رامزي.. يا للذعر الذي عشنا فيه.. كنا نبحث في كل مكان.. مع أننا خمّنا ماذا حدث.. على الأقل أنا خمنت وشقيقتك كذلك.. لن يصدق هذا أحد من أصدقائك.

همست ايريس بفظاظة حين لم يتكلم رامزي:

- يصدقون ماذا؟

- يصدقون أنه سمح لمرأة بتأخير آخر أفلامه.

والتفتت إلى رامزي مبتسمة، إنما بشيء من الاعتذار:

- في الواقع لم نكن نلاحقك.. على أي حال تصورناك في مكان أفضل من هذا.. لقد ذكرت هذه المنطقة كموقع للجزء الأول من الفيلم، وقرر بعضنا تمضية أيام في مشاهدة هذا المكان.. ولهذا كنا نزحف ببطء على الطريق، وكدت أموت من فرط الصدمة عندما رأيتك واقفاً هنا.

قالت ايريس: هذه الطريق إلى البيت الذي ورثته.

ضحكت غرايس: «أتصدقين أنني نسيت كل شيء عنه؟ لكن كان يجب أن أعرف. هل تزوجتما؟»

فيما عينا غرايس تبحثان عن يد ايريس اليسرى بفضول انضم إليهم الأصدقاء الذين كانوا في السيارة.. وهم جميعاً من فريق العمل في الفيلم الجديد.. وكانوا جميعهم مستغربين.

تكلم رامزي أخيراً:

- لا.. لم نتزوج حتى ولو كنا نبدو زوجين.

أوحت المراوغة في صوته إلى أنه يعتبر السؤال سخيفاً. ولم يرد أحد أو بدت عليه الدهشة، مع أن ايريس ومن خلال حمرة الخجل لاحظت بعضهم يرفع حواجب السخرية.

تصرفت غرايس بمرح متحذلق وكانت نظرتها ساخرة ملؤها الحقد وقد وجهتها لإيريس.

قالت غرايس برقة: «آسفة.. لأنني سألت. أتعرفين أن والدك في لندن ايريس؟ لقد حصل على دور في الفيلم كذلك».

خاطبهم رامزي ببرود وشحوب:

- اسمعوا، لماذا لا تذهبون إلى فندقكم.. وسأراكم هناك فيما بعد.. لدي رشح ولا أشعر أنني قادر على المجاملات الاجتماعية.. ولكنني أعد بأن أراكم.

كادت غرايس تحتج ثم وافقت على مضض. بعدما ذكرت اسم الفندق، مطت شفتيها لرامزي:

- لن تختفي مرة أخرى.. أليس كذلك؟ أما زال دوري قائماً؟

هز رأسه: «أجل.. بكل تأكيد.. لا أنوي الاختفاء مرة أخرى وآمل أن أبدأ العمل فوراً».

قال رامزي وهو يراقب صعود الزوار إلى السيارة، بصوت بارد غاضب:

- لقد استرحت لأنهم قرروا الرحيل فوراً فلولا ذلك لرأوني أخنقك.

كان هدوؤه أكثر من مخيف وكانت الكراهية تقفز من عينيه، وبدا قادراً على ذبحها في الحال.. صدمتها قسوة كراهيته ولم تتمكن من قول شيء.. ولم تستطع حتى الدفاع عن نفسها وهو يمسك ذراعها ويجرها فوق الطريق الترابية.

صاحت وهي تحس بذراعها تكاد تخلع: كفى!

كانت مرعوبة رعباً لم تستطع معه التفكير على نحو سوي. وكانت تحس بنوع من الراحة لأنها لن تضطر إلى التظاهر بعدم معرفة رامزي بعد الآن، ولأن الأمر انتهى قبل أن يصل توترها حداً لا يُطاق.. لكن هذه الراحة سرعان ما تلاشت أمام غضبه.. وتضامن هذا مع خوفها أن تكون صدمة الاكتشاف المؤقتة قد دفعته إلى فقدان عقله، وهذا ما جعلها تتعثر وتقع على ركبتيها..

شهقت: «أرجوك رامزي».

لكنه تابع جرها فوق الحصى والوحل دونما رحمة.

ربما كان خروج اسمه بسهولة من شفتيها المرتجفتين هو ما قطع آخر خيط من خيوط سيطرته على نفسه.. فتوقف إنما ليشدها حتى تقف على قدميها.. ترنحت أمامه ثم رفع يده ليصفعها بقسوة مرتين على وجهها.

صاحت صيحة ألم ثم ارتدت إلى الوراء، فالتوى فمه بقسوة لا رحمة فيها وابتسم ابتسامة متوحشة وكانت عيناه السوداوان تخترقانها.

- إن لم أضربك فسأقتلك، وهذا ما تستحقينه فعلاً. فكري هكذا.. ولن تتألمي كثيراً.

- رامزي..

نظر إليها باحتقار، وقال ساخراً:

- أجل.. رامزي! ما أسهل أن تقوليه الآن! مع ذلك رحت تناديني باسم أكرهه.. من سوء حظي أنني لا أستطيع أن أقتلك.. ولكنني سألقنك درساً لن تنسيه أبداً.

سمعت صوتها يرتجف وهي تحاول أن توصله إليه:

- ليتك تصغي فقط رامزي!

سرعان ما فهمت أنه غير مستعد للإصغاء.. فقد نظر إليها بوحشية وراح يهزها بعنف:

- لا أستطيع التفكير في أنني كنت يوماً منجذباً إلى فتاة عقلها ملتوٍ مثلك.

وتابع يلقي إهاناته في وجهها حتى تخدشت أذناها وأحست بالألم والخزي ولم تعد تعرف ماذا تقول.

سألها بصوت راعد: «لماذا فعلت هذا؟»

ردت يائسة من بين شهقات البكاء:

- أستطيع أن أسألك السؤال ذاته.

- عم تتحدثين؟

- هذا.. ما يجب ألا تسأله.

- لكنني أسأل! فلنخرج خطاياي من الطريق أولاً قبل أن نبدأ في خطاياك.. بمَ تتهمينني بالضبط؟

نظرت إلى وجهه المتجهم الذي لم تكن تراه تقريباً.. كيف يجرؤ على الاحتجاج هكذا؟ ارتفع صوتها بهستيريا:

- كنت فاقدة الوعي.. فكيف لي أن أعرف ماذا حصل بالضبط؟ لكنني قرأت رسالتك الكريهة في الصباح التالي.. وهي لم تترك لي مجالاً للشك..

ذهل للحظات إنما ليست لوقت كافٍ لإخماد غضبه: أيتها الحمقاء!

- أوه.. أعرف أنني كنت حمقاء.. لكن بعد فوات الأوان.. أدركت هذا بعد اختفائك.. إنما لا تقلق، استخدمت المال الذي تركته لي لأستعبد ضميرك.. عندما لم أجدك لأرده إليك لم يكن لدي خيار ولكنه موجود.. إلا بضعة جنيهات أنفقتها عليك.. أظننتني قادرة على لمس ذلك المال؟

صاح: «لكنني لم ألمسك»

اتسعت عيناها من فرط الصدمة وشحب وجهها شحوباً شديداً ثم سحبت نفساً متحشرجاً: أتعني...؟

التوى فمه: «لم أمسّك».

عرفت أنه يقول الحقيقة فامتقع وجهها بلون أحمر مجنون..

صاحت به يائسة: «أيها الشيطان الوغد!»

وأطلقت يدها بقسوة وغضب، لكنه التقطها وأمسك بها قبل أن تصل إلى خده.

قالت وهي تتنفس بصعوبة:

- والمال.. لماذا تركته لي؟ لقد شعرت بالإهانة الشديدة عندما طردتني بتلك الطريقة.

- أردت معاقبتك قليلاً حتى يتاح لك الوقت لتفكري. ألا تستحقين شيئاً بعد العذاب الذي أوصلتني إليه؟ أردت أن تمري بلحظات قلق.. وكيف لي أن أعرف أنك على هذه الدرجة من السذاجة والحماقة؟

تأوهت: «انعتني بالحماقة ما شاء لك ذلك.. لكنك متوحش!»

لكن رامزي لم ينس دورها في كل هذا:

- هذا لا يقارن أبداً بالطريقة التي قد أصفك بها! طوال هذه الأسابيع وأنت تتظاهرين بأنك لا تعرفين هويتي وكنت تعاملينني كحشرة، جعلتني أقوم بأقسى الأعمال، هذا إذا لم أقل شيئاً عن إضاعة وقتي.

انخفضت وتيرة صوته إلى درجة الهمس الشرير فارتعشت أوصالها:

- يقولون عزيزتي إنه ليس في الجحيم حرارة تماثل حقد المرأة..

لكنك ستجدين أن انتقام الرجل قد يكون أكثر إيلاماً.. قبل أن أنتهي منك سأراك زاحفة!

نظرت إليه شاحبة الشفتين:

- رامزي.. أنا.. أنا آسفة. أعرف أنه كان عليَّ أن أقول لك.. ولكني ما فعلت ذلك إلا لأنني شعرت بالخزي بسبب الطريقة التي طردتني بها.. لم أفكر قطّ..

قاطعها بحدة: والآن فات الوقت.. يا إلهي.. يمكنني..

عندما تركها أدركت أنه كان يخشى أن يتقيأ.

همست: «رامزي!»

ارتدّ لينحني فوق سياج قريب، وتقلصت معدتها بمزيج غريب من الشفقة والخوف والندم.. من الطبيعي أن يعاني من ردة فعل جسدية.. مرة أخرى أحست بالندم على الدور الذي لعبته.. ولكنها لم تتصور قطّ بأن ذاكرته ستعود بشكل مفاجيء هكذا.. وصدمتها لهفة عميقة له تتزامن مع المعرفة بأنها تصرفت بشكل شائن، ودونما هدف يستحق.. لكن كيف لها أن تعرف؟ وفيما كانت تهرع إليه حاولت عدم الاهتمام بالصوت الذي أخذ يهمس لها أنها لو لم تكن تحبه كثيراً، لتمكنت من تفسير أشياء كثيرة بشكل منطقي أكثر.

فكرت، أجل.. إنها تحبه.. لكنه الأمر الوحيد الذي يجب ألا يعرفه، خاصة الآن على الأقل.

***

٥ ـ الحب جحيم آخر

عندما تقدمت ايريس رأت رامزي يستند إلى شجرة ورأسه بين يديه.. ما إن وقفت إلى جانبه حتى دفعها عنه بوحشية، أما وجهه فكان متجهماً من الصدمة.. فالواضح أن ردة الفعل كانت تضربه بقسوة أكثر مما توقعت.. وبدا منظره رهيباً.

حاولت بحزم عدم إبداء الخوف فسألت:

- كيف تشعر رامزي؟ ماذا تتذكر؟

تجاهل تعاطفها، وكان في صوته شرّ وهو يمد يده ليشدها إليه ثانية:

- أذكر كل شيء.. كل شيء تقريباً عاد إلى ذاكرتي بعد لحظات من وصول غرايس.

بدأت تقول بصوت عاجز: أنا آسفة...

كاد الغضب يقفز منه بشكل مرئي:

- ليس بمقدار نصف الأسف الذي سأجعلك تشعرين به.

قبض على خصلة من شعرها الطويل الذي عبثت به الريح، وشد رأسها بسرعة إلى كتفه العريضة، يضمها بقسوة جعلتها تتأوه، فقال بصوت أجش:

- لا تقولي إنك لا تحبين أن أضمّك!

حاولت بذعر الإنكار.. لكن المقاومة كانت مستحيلة. بدا عناقه لها وكأنه يوصلها إلى مرتفعات لا تصدق. ثم صاحت صيحة مخنوقة ووجدت نفسها تتشبث به.. وفي هذه اللحظات بالذات أبعد رأسه قليلاً

ليقول ساخراً:

ـ يجب أن تصبحي قادرة على التحمل، هذا إذا كنت ستعيشين حتى تشبعي رغبتي في الانتقام منك.

قالت له متوسلة:

ـ رامزي.. أعتقد أن عليك العودة إلى المنزل، ودعني أتصل بالطبيب.. لا شك أنك بحاجة إلى بعض العناية.. لقد تلقيت صدمة رهيبة.

رد ساخراً: «حقاً؟»

لكنه ارتدّ عنها وبدأ السير صعوداً نحو المنزل. حين توقفت ايريس تنوي أن تركض إلى القرية، أمسك بذراعها:

ـ ستأتين معي! لا أريد أن تحضري الطبيب إلى هنا.. من الطبيعي أن أقول له إنني تعافيت حين أراه.. على أي حال، كان يعرف أن ذاكرتي تعود بالتدريج.

اضطرت للركض لتحافظ على السير بموازاته وسألت: «لماذا لم تقل لي؟».

ـ كانت مجرد أشياء غريبة.. ولم يكن بينها ما هو حقيقي.

ـ مثل ماذا؟

ـ يا إلهي! ألا تستسلمين أبداً؟ مثلاً كاليوم الذي قلت لي فيه إنك لن تناديني بالمحبوب.. تساءلت عن هذا الأمر حتى كاد شيء ما أن يخترق ذاكرتي.. وأعتقد أنني كنت سرعان ما سأستعيد ذاكرتي حتى بدون ظهور غرايس.

دار رأسها بأفكار غير مترابطة:

ـ لقد أعطيت غرايس الدور بعد كل شيء.

ـ أجل.. وكذلك والدك.. بعدما اتصلت به غرايس في أمر ما ونصحته بالاتصال بي.

ردت مخدرة الفكر:

ـ لم يكن لدي فكرة.

ـ لم تكوني موجودة ليخبرك أحد.

فجأة أحست بالقلق.. هناك ما لم تفهمه.. وتذكرت ردة فعلها الأولى حين وجدت رامزي على عتبة دارها منذ أسابيع.. وطرحت السؤال الذي كان يزعجها منذ تلك اللحظة:

ـ لماذا عدت من أميركا بسرعة؟

رد فوراً، إنّما بصوت حذر:

ـ قررت ببساطة أن أبدأ تجوالي.. كان عليّ رؤية أشياء مهمة ومختلفة هنا.

ـ تقرير موقع التصوير واحد منها؟

رفس باب المطبخ وجرها إلى الداخل: «أجل».

ما إن أصبحا داخل المطبخ حتى أخذ كرسياً ورمى نفسه فوقه متأوهاً ووضع رأسه على ذراعيه فوق الطاولة.. كانت كتفاه محدودبتين، ولاحظت أن شرايين ظاهر يديه متوترة.

قلقت عليه رغم غضبه.. وهمست: رامزي؟..

لكنه لم يرد عليها:

ـ أتشعر بالتوعك مرة أخرى؟

استوى ثم راح ينظر إليها:

ـ ليس حقاً، أحتاج فقط إلى بعض الوقت لأستجمع نفسي.. وبعد ذلك سأكون على استعداد للتعامل مع أي شيء، وكل شيء.

بدا لها كلامه تهديداً فارتجفت. ثم قال متجهماً:

ـ أنا بحاجة إلى شيء ما أشربه.

عندئذ أدركت ايريس أنها تعاني ذات الصدمة التي يعانيها، وإلا لأعدت له الشاي الساخن.

قالت بسرعة: «سأضع غلاّية الماء على النار».

عندما همّت بالإمساك بالغلاية تسمّرت فجأة.. فمما قاله بدا أنه

يقحمها بمستقبل غني بالمآسي.. سألت: «أعتقد أنك راحل حالاً».

مرت عيناه عليها ببرود:

ـ سأرحل متى ناسبني الرحيل.

التقت نظرته الساخرة برعب كامل:

ـ سيكون أسهل لنا إن رحلت حالاً، وإلا ماذا ستقول لغالورت؟

صمتت قليلاً تاركة عينيها تبحثان في وجهه الجامد، ثم صاحت بجنون:

ـ لقد تركت غرايس تعتقد.. على الأقل أعتقد أن غرايس.. تعتقد..

قطع عليها كلماتها المتلعثمة:

ـ اصمتي! أرى إلى أين أوصلك جنونك اللعين ولا أحتاج إلى أن تشرحي لي شيئاً.. أعرف تماماً ماذا ظنت غرايس والطاقم الذي برفقتها.. أتصور هذا.. ولا أهتم أبداً!

همست مرتاعة من تصرفه: «لكن الفيلم؟»

وقف على قدميه فارتدت نحو الفرن:

ـ ماذا عن الفيلم؟

ـ لا يمكنك إتمامه وأنت هنا.

ـ ولِمَ لا أستطيع إتمامه؟ يجب أن أنام في مكان ما.

ـ لكن سريرك..

وكادت تقول إنه غير مريح، لكنها لم تجد الشجاعة لتذكيره بهذا..

أما هو فومضت عيناه وأردف نيابة عنها:

ـ أوافق أنه ليس أفضل سرير ولكنني سأستخدم سريرك من الآن وصاعداً.

تعالى الاحمرار إلى وجنتيها: سريري؟

تشدق بوحشية: «لا تقلقي.. لا أنوي أن أنام فيه معك.. بل ما سيحدث هو تبادل الأسرة».

عندما راحت تنظر إليه أردف:

ـ والشيء ذاته ينطبق على غرفة الجلوس.. سأستولي عليها أيضاً. أما أنت فتجلسين هنا في المطبخ، كما كنت أفعل في الماضي.. فستحتاج غالورت إلى كل العون في غضون الأسابيع القليلة القادمة.. وحينما أرجع إلى المنزل كل مساء سأطلب وجبة طعام شهية.. ونار، وخلوة.

صاحت مذعورة: «لن تستطيع إجباري على هذا! سأخبر والدي!»

رد بازدراء:

ـ هيا افعلي.. لك الحرية في اكتشاف مقدار العون الذي قد تتلقينه منه.. اسمعي! إن بدر عنك ما هو متهور خرج أبوك وغرايس من الفيلم! لك إن شئت أن تسمي هذا إنذاراً أو ابتزازاً أو استغلالاً.. ولكنه واقع.

شهقت مصعوقة:

ـ قد لا يمانع والدي.

ـ أظنك ستجدينه معارضاً خاصة وزوجته حامل.

نظرت إليه بعدم تصديق:

ـ أبي؟ لست جاداً! نعم هي في الثلاثين.. لكن..

وتلاشى صوتها.. أما فم رامزي فالتوى:

ـ أليس طبيعي أن يرغب المتزوجون في الأطفال؟ يبدوان سعيدين بحملها هذا.. ولكنهما بحاجة لكل مساعدة مالية ممكنة.

صاحت وهي تحس بالسقم:

ـ أيها الشيطان الشرير!

ارتفع حاجباه بسخرية فوق عينين باردتين:

ـ شرير! أليس الحري بك أن تنعتي نفسك بهذا؟ أنظري إلى يدي مثلاً، تحسسيهما.

ومررهما على خديها:

ـ لن يقبلوني عاملاً في موقع عمل بيدين كهاتين!

نظرت إلى يديه بخجل ظاهر.. من غير الجدوى أن تقول إنها آسفة..

صاح بنفاد صبر:

ـ أنا لا أخجل بهما، لكنني أستخدمهما لأظهر لك مدى التطرف الذي كنت مستعدة للمضي به. ففي خضم عطشك للثأر قمت بما في وسعك لإرهاقي بالعمل الشاق وسررت عظيم السرور برؤية ثيابي المزرية.

ردت بتهور:

ـ حسناً، أنت الملام جزئياً.

نظر إليها رامزي وفمه مشدود:

ـ هذا صحيح.. أعترف لك بهذا. ولكن لو سمحت لنفسك بأسبوع من إنكار هويتي، لاعتبرت أننا متساويان.. ولكن مضى شهران! يا إلهي.. ما أشد حقدك! حين أفكر كم بذلت جهدي لأرضيك، لا بد أنني كنت فاقد العقل!

أدارت وجهها بنحيب مكتوم، ولم تكن قادرة على قول كلمة أخرى تدافع بها عن نفسها.. حين نظر إليها رامزي باحتقار وقال إنه متوجه إلى غرفته كادت تبكي من الراحة..

ما إن ذهب حتى تهالكت على الكرسي ووضعت رأسها على ذراعيها فوق الطاولة.. أينما وجهت تفكيرها لم تر سوى التشوش.. أمامها الكثير من المسائل التي عليها أن تحلها ولكن رأسها يدور في دوامة.. لقد وعد أن يجعلها تزحف على ركبتيها، وهي لا تشك في أنه فاعل ذلك. لقد شاهدته يفعل هذا من قبل في لندن، ولكنها لا تجد سبباً لاستمرار هذا الوضع بينهما. لرامزي عبوبه.. لكنه ليس بالرجل الحقود.. الآن لا تأمل إلا شيئاً واحداً هو أن يستعيد رامزي غداً تعقله.

لم يغب عنها كثيراً.. وحين عاد قال باقتضاب:

ـ سأرسل لك سيارة أجرة، قد تصل إلى هنا بعد نصف ساعة.

رفعت رأسها بدهشة:

ـ أتفكر في السير على قدميك حتى القرية؟ بعدما مررت به.. لست بخير.

ـ أؤكد لك أنني بخير، وسأفعل ذلك.. لا خطب بي الآن.. وقد سبق أن تخطيت أزمات أسوأ من هذه بكثير.. وأشك أنك قادرة عليها.. لكن هذه مسألة أخرى.

نظرت إلى عينيه الرماديتين المشتعلتين فابتلعت ريقها، ثم لعقت شفتيها الجافتين:

ـ إذا كان عليك أن تخرج هذه الليلة رامزي.. فدعني أذهب إلى القرية لأرسل لك سيارة الأجرة.. فأنا لست ذاهبة إلى مكان ما.

ـ لا.. شكراً. ثم أنت ذاهبة إلى مكان ما.. كوني جاهزة حين تصل السيارة.

ـ أنت لا تحتاجني.

ـ هذا صحيح.. ولكنني أريدك معي.

نظرت إليه بغضب مفاجيء:

ـ لماذا؟ ليحدق إليّ الجميع وليتهامسوا فيما بينهم؟ ألا تظن أن الأمور سيئة بما فيه الكفاية كما هي الآن؟.. إن رافقتك فسأرفض مكالمة أحد.

ـ لن يكون من الضروري أن تتكلمي.

عمّ قلبها الرهبة، فقالت متلعثمة:

ـ هناك أمر واحد لم تفكر فيه.. غالورت، كيف نتركها؟

ـ لن تصاب بضرر في غضون ساعة.. احملي لها عشاء خفيفاً وقولي لها إنني استعدت ذاكرتي، وستكون راضية بهذا.

ـ وماذا عن ثيابك؟

نظرت بقلق إلى الكنزة والبنطلون اللذين يرتديهما.. كانا لسوء الحظ لا بأس بهما. بعدما استعاد عجرفته.. في الواقع قد يعتبر بعضهم مظهره المزري قليلاً مجرد إضافة إلى جاذبيته.

صاح بعدم اكتراث:

- وماذا عن ثيابي؟ سأطلب إحضار ثيابي الخاصة غداً من لندن، لكن هذه الملابس مريحة حتى إن لم تعد تثير تسليتك.

أجفلتها سخريته القاسية وسمعت ايريس نفسها تسأل:

- عندما جئت إلى هنا لم تكن ترتدي سترة، ولم تجد الشرطة شيئاً ولم يجدوا سيارتك.. هل تذكر ماذا حدث لها؟

ردت بصوت بارد:

- حين غادرت لندن كنت أرتدي سترة ومعطفاً. ولكنني لم آتِ بسيارة.. كان معي أوراق مهمة كثيراً، أعتقد أن من هاجمني أخذها معه حين سلبني معطفي.

هزت ايريس رأسها ونظرت إليه بتساؤل، فلمَّا هزَّ كتفيه أدركت أنه لا يرغب في إشباع فضولها.. تردد قليلاً، ثم قال:

- كنت قد وجدت المنزل القديم الذي سنبدأ فيه تصوير أول جزء من الفيلم.. وأعتقد أنني تركته متأخراً، لأنني أذكر أنوار السيارة القادمة من خلفي.. وهو آخر شيء تذكرته.

- لا شك أن ذلك حدث عندما فقدت الوعي.. ثم أعتقد أنك صحوت وسرت إلى هنا؟ أما الباقي فنعرفه.

رد مكفهر الوجه: «أجل.. أعرف الباقي جيداً».

ارتدَّ إلى الوراء وأردف بحدة:

- من الأفضل أن تعطيني ما تبقى من المال الذي أعطيتك إياه.. فقد يتساءل الناس كثيراً لو ظهرت الليلة بلا مال.

حملت إليه المبلغ المخبأ في درج المكتب في غرفة الجلوس، فدسه كله في جيبه.

- من الأفضل أن تستعدي.. يمكننا إتمام الحديث فيما بعد.

عندما صفق الباب خلفه بدأت ايريس بتنفيذ ما طلبه منها.. حضرت صينية طعام لغالورت ثم حملتها إليها ورتبت لها السرير وهي تأكل. وهناك ذكرت لها باقتضاب وعفوية أن رامزي استعاد ذاكرته وقد أخبرتها

كيف أن غرايس رأته في نهاية الطريق.. ولكن المدهش أن غارلوت تقبلت التفسير بدون ريبة، وقالت:

- أوه! أنا مسرورة! إنه نجم سينمائي مشهور!

- إنه مخرج.

- الشيء عينه.. أليس كذلك؟ طالما قلت لك إنه شخص مهم.

- يريد مني أن أرافقه مدة ساعة لأتعرف إلى أصدقائه.

- في مثل هذا الوقت من الليل؟

- ربما يجب أن أذهب وأتأكد أنه على ما يرام.. يقول إنه بخير.. لكن من يعرف ما هو مخبأ.. فإن بدأ الكلام، فقد ينسى أن يعود إلى هنا إذا لم يكن معه من يذكره.. مع أنني لا أحب أن أتركك.

أعطت غالورت الصينية الفارغة إلى ايريس:

- اذهبي عزيزتي ولا تقلقي عليّ.. لقد أخذت قرصاً مما وصفه لي الطبيب، وسأنام على الأرجح حتى الصباح.. أنا مسرورة كثيراً لما آلت إليه الأمور.

في المطبخ وضعت الأطباق، واتجهت إلى السلم الآخر لتستعد.. لم يبق أمامها غير خمس دقائق من النصف ساعة التي سمح رامزي بها لها.. وقد تنجح في الاستعداد لو أسرعت.

في غرفتها.. وقفت مسمرة.. أين اختفت كل ثيابها؟ حين فتحت باب الخزانة لتبحث عن الجينز والكنزة لم تجد سوى ثياب رامزي الغريبة، وكذلك الأمر بالنسبة للأدراج.. لقد اختفت كل ممتلكاتها. اسودت عيناها غضباً ونظرت إلى السرير، كان مقلوباً وروب رامزي مرمي على طرفه.

هرعت إلى الغرفة الأخرى تسحب أنفاسها بصعوبة فوجدت أنه لم يزعج نفسه بوضع ثيابها بالترتيب كما فعل بثيابه! شهقت باكية وبدأت تلتقط ثيابها.

إذن لقد بدأ بتنفيذ تهديده! خفق قلبها بغضب باكٍ. تذكرت كيف

صفعها ثم عانقها، ثم تذكرت كلماته الفظة وقسوته في معاملتها.. وقالت لنفسها بجنون: لن أتحمّل المزيد.

ثم تذكرت أباها وغرايس، وتذكرت تهديد رامزي. ربما تهديده أقدم طراز من الابتزاز في العالم ولكن لسوء الحظ أن لا مجال للتهرب منه، ليس من أجل والدها وغرايس بل من أجل زويل والطفل.

شهقت وهي تفكر في أخت أو أخ لها يصغرها بعشرين سنة. نعم ستكون أختا أو أخاً من أم أخرى، ولكنها في النهاية أختها! وعندما ستكبر ستكون كعمة أو خالة للصغير..

يا لهذه الورطة المريعة! مسحت الدموع عن وجهها وبدأت ترتدي ثيابها بسرعة. بعد قليل سمعت سيارة التاكسي تقف في الخارج.. ولكن عليها أن تنتظر.. ولأنها ظنت أن الموجودين الليلة سيرتدون ثياباً عادية ارتدت بنطلون جينز وقميصاً ثم رمت فوق كتفيها النحيلتين سترة بلا أكمام تنسجم مع القميص ومع الوشاح الصوفي الذي لفته على عنقها.

أوصلها التاكسي إلى فندق ريفي يقع على بعد عدة أميال.. في الفندق، أشير إليها بدخول الصالة وهناك تقدم رامزي لاستقبالها مادّاً يده.. لكنها وضعت يدها خلف ظهرها، فسارع يقول من بين أسنانه:

ـ تظاهري وإلا ندمت.

وانحنى بمحبة يلثم وجنتها وينزع وشاحها.

أحست ايريس بنظرات الفضول وبحركة الشفاه الهامسة.. في هذه الأثناء كان رامزي يجلسها قربه.. بعد تعارف قصير مال إليها، وهمس:

ـ تبدين في السادسة عشر من عمرك في هذه الثياب.. ألم تجدي ما يجعلك تبدين أكبر سناً؟

ابتعدت عنه مبتسمة بفتنة:

ـ آسفة.. لقد فتشت عن بعض السنوات الإضافية، لكن لا شك أنك رميتها مع ما رميت من أشيائي.

ـ ألم يعجبك «جناحك» الجديد؟

والتفت ذراعه بقسوة على خصرها فهمست بشراسة:

ـ لا! أول شيء السرير!

ـ سريرك يتسع لشخصين.

رفع صوته قليلاً، فارتفع حاجباها عالياً: أنت...

وضع رامزي كوب العصير على شفتيها ليصمتها، ولئلا تختنق اضطرت إلى ارتشاف بعض العصير.. كانت غرايس، كما لاحظت، أكثر اهتماماً من البقية، إذا لم تكن أكثر دهشة. وتذكرت ايريس بشكل غامض إعلان غرايس بأن رامزي معجب بها كثيراً.. كم يمكن أن يغالط المرء نفسه؟

همست بغضب بعدما أحست أنها لا تطيق قربه: دعني!

رد هامساً: «بإمكانك الذهاب إلى.. تعلمين أين! إنما ليس قبل أن أنتهي منك».

احترقت أذناها ولم تكن قد سمعته يشتم من قبل كما فعل بعد الظهر وكم تمنت لو يتوقف عن هذا.. ولم تتنفس بحرية إلا عندما استدعي ليرد على مخابرة هاتفية.. لكن أمد الراحة كان قصيراً إذ سرعان ما التقت ببوني براند.

شهقت ايريس: «ماذا تفعل هنا؟»

لوّح أصابعاً نحيلة جميلة:

ـ آها.. لقد وصلت للتو من لندن. لقد حصلت على دور في فيلم لونغ الجديد.. دور فارس يضع درعاً وسيكون لي جواد أبيض كذلك.. وعندئذ سأكون مستعداً لاختطافك بعيداً.

ـ لم أكن أعرف أنك تجيد امتطاء الخيل.

لم تكن ترغب في الوقوف معه أو مع أي رجل آخر، فهي تعرف جيداً مزاج رامزي السيء.. ولكن يجب أن تحدث شخصاً ما، وهي تعرف بوني منذ زمن بعيد.

ـ ليس هناك ما لا أستطيع أن أفعله.. جربيني حلوتي.

رفعت ذقنها: «أظن أنني سآخذ ادعاءاتك على محمل الجد.. شكراً لك».

نظر إليها مدعياً الألم: «ستلعبين دور وصيفة غرايس، أليس كذلك؟ أخبرتني ذلك».

غضت ايريس طرفها بسرعة.. فالواضح أنه لم يرَ غرايس منذ مدة..

- أنت لا تعرف آخر الأنباء فأنا لن أشارك أبداً بالتمثيل.

تأوه بصوت مرتفع:

- أوه.. لا! كنت أعتمد على هذا! إذا لم تكوني من فريق الفيلم، فماذا تفعلين هنا؟

توردت وجنتا ايريس وكم تمنت ألا يلاحظ توردها:

- ورثت منزلاً لا يبعد كثيراً عن هنا، كنت أرممه لأبيعه.

ابتسم: أوليس هذا أمراً رائعاً.

ولف ذراعه حولها ثم قال بطريقة تمثيلية:

- والآن.. أستطيع الهرب من كل هذا.. فعندما تشتد عليّ الأمور أترك كل شيء وأزورك! وسنجد عندئذ الخلوة التامة حلوتي!

فجأة وفيما بوني يضحك بمرح قُبض على كتف ايريس التي انتزعها انتزاعاً من تحت ذراعه.. ووقف رامزي مكفهر الوجه:

- لو ضبطتك يوماً على بعد أميال من ايريس أو من منزلها لانغ.. فلن تعرف ماذا سيصيبك!

ابتلع بوني ريقه بصعوبة وتلون وجهه بألوان مختلفة:

- لم أكن أعلم بأنني أتطفل على أملاك الآخرين.

- لا تقل إنني لم أحذرك!

وجرّ ايريس بعيداً.

سألته: «إلى أين سنذهب؟».

- إلى المنزل.

- المنزل؟ ولكنني لم أكلم غرايس.

- لدينا غالورت لنفكر فيها.

أذعنت بلهفة:

- صحيح.. طبعاً.. لكن أكان من الضروري أن توحي للجميع بأن بيننا علاقة؟

- أؤمن بأن الصراحة مع الناس جيدة وأنا أفضلها على إبقائهم في حيرة.

في التاكسي تابعت هامسة:

- لكن ليس بيننا علاقة، ولا أنوي أن تحدث يوماً.

سخر منها: أعتقد أن السيدة تتذمر كثيراً.

همست: أنت لا تطاق!

رنا إليها بطرف عينه:

- لقد عنيت ما قلته لبوني براند كذلك.

ارتجفت ايريس مجدداً من السخط:

- إذن هو شخص آخر سيعتمد عمله على إذعاني؟

- آن الوقت لتتعلمي تحمل المسؤولية.

لم ترد بل جلست صامتة حتى وصلا إلى مورايدج.. ما الفائدة من الشعور بالبؤس؟ ولماذا تقاومه؟ أوليس من الأسهل أن تستسلم؟ أن تطيع بإذعان أوامره الحادة؟ إنه أقوى بكثير منها ولن تصل إرادتها أبداً إلى مستوى إرادته الحديدية. ولكن هذا لا يفسر أبداً الرابط الذي يشد أحدهما إلى الآخر.. إنه موجود بينهما دائماً ويصعب تجاهله أو إنكاره..

فكرت: يجب أن تتعلم السيطرة على مشاعرها.. فرامزي لا يريد غير معاقبتها لما فعلته به.

في مورايدج دفع رامزي أجرة التاكسي، وطلب منه العودة في الثامنة من صباح الغد.. فسألته ايريس بحدة بعد ذهاب الرجل:

- وإلى أين تظن أنك ذاهب؟ أنت بذلك تدفع نفسك إلى المرض مجدداً.

قال وهو يقودها إلى المنزل: لم أعان من مرض.. لكن إن حدث وعانيت فسأجد الراحة في سريري الجديد وستعملين أنت على خدمتي.

نظرت إليه بمرارة:

- أعرف أن اللوم يقع عليّ.. كنت غبية لأنني لم أقل للطبيب من تكون! فلو حدث ذلك لما رأيتك مجدداً!

قال ساخراً:

- أنت فتاة ستبقى دائماً مترددة.. أنت متهورة جداً.. وأنا لا أبالي بالتهور قدر مبالاتي بالكذب.. ألن تقولي تالياً إنك لا تريدين رؤيتي مجدداً؟

أخفضت عينيها بسرعة خوفاً من أن يرى ما فيهما:

- يبدو أنك لن تصدقني لو قلت لك هذا.

- لا.. لن أصدقك!

- سأصنع لغالورت بعض الكاكاو.. أتود القليل منه؟

رد بعجرفة:

- لا! ولا تظني نفسك قادرة على رشوتي لتغيري مزاجي إلى الأفضل، بالكاكاو أو بتجاهل ما أقول.

بدا متعباً شاحباً بالرغم من غضبه، حتى أنها أحست بالقلق يطغى على الرد العدائي الذي كانت تحضره.. وسألته:

- هل أنت فعلاً مضطر للخروج باكراً صباح الغد رامزي؟

قال فجأة:

- أنا ذاهب إلى لندن.

طارت نظرتها إليه: «لندن؟»

أكد لها بسخرية لاذعة:

- سأعود في اليوم التالي.. لدي أعمال أهتم بها.

حسناً.. لا شك في هذا بعد المدة الطويلة التي أمضاها هنا. عضت على شفتها بعجز وأجفلت ألماً:

- أعتقد أنك ستجلب معك خادمك؟

رد بصوت بارد:

- ولماذا؟ فأنت موجودة.

لم تتمالك نفسها من الصياح بغضب:

- وسريري! هل استمتعت برمي أشيائي إلى الخارج؟

عذر نفسه بعدم اكتراث:

- كنت على عجلة من أمري.

أدركت أن من غير المجدي مجادلته فما زال في مزاج غير رائق وما زال الغضب يسيطر على نفسه فلو أثارت حفيظته لوقعت الواقعة على رأسها.

غيّرت دفّة الحديث قائلة:

- لم تسمح لي بمحادثة غرايس حتى!

صاح بها وكأن ما يقوله يفسر كل شيء:

- لقد رمتك خارج بيتها.. وهذا ما كنت أتوقعه.

- وكيف تحققت من أنها طردتني.

- أخبرتني بذلك إحدى الجارات. قالت، ولو على مضض، إنها كانت تمر بالباب وسمعت غرايس تصرخ بأعلى صوتها، وبعد دقائق رأتك تهرعين من المنزل ومعك حقيبة ملابس.

تمتمت:

- لم يحدث هذا هكذا تماماً.

- بل حدث ذلك.. إنها سافلة!

استبدت الحيرة بايريس:

- ما دام هذا رأيك بها، فلماذا عدلت عن رأيك وأعطيتها الدور؟

- لا شأن لهذا بذاك.. كنت قد اتصلت بوكيلها قبل هذا.

نظرت ايريس إليه مترددة ولكنها لم تكن قد فهمت شيئاً وهو يضيف:

- في الواقع ستعود غرايس معي إلى لندن في الصباح.. فهي غير

مطلوبة للتمثيل هنا قبل أسبوع آخر.

- ووالدي؟

نظر إلى وجهها الملهوف باستخفاف:

- لن يكون في الجزء الذي سيصور هنا.. هو في الوقت الحاضر يعمل في ناد ليلي..

- هكذا إذن.

ظلّ يتفرس بها بعينين ضيقتين ثم رأت أصابعه تتمدد وتتكور في راحة يده، وكأنما يحاول ألا يمسكها مجدداً ليهزها.. تحشرجت أنفاسه وكان على وجنتيه احمرار ولكن صوته كان حازماً حين تكلم:

- سأذهب إلى النوم، وسأراك في الصباح.

وهذه إشارة واضحة بأنه يتوقع منها أن تكون مستيقظة لتعدّ له الفطور.. اشتدت أسنانها لتمنع نفسها من رد غاضب.

أردف ببرود: ليلة سعيدة إذن.

قبل أن يرحل في الصباح، أعطاها تعليمات مشددة بعدم ترك «مورايدج» حتى عودته.. وقال إنه سيطلب بعض المؤن وإن عليها أن تكون موجودة لتستلمها، وإلا ارتبكت غالورت.. بدا شديد الاهتمام بغالورت فجأة.. راقبته ايريس بريبة والسيارة تنقله إلى محطة القطار لكنه على أي حال طالما أبدى احترامه لغالورت وساعدها قدر إمكانه..

أطرقت رأسها خجلاً.. رامزي على حق.. فهي تستأهل أن تعاني.. لو اعترفت بعد بضعة أيام أنها تعرفه لما كان بمقدور أحد تأنيبها.. ولكن عطشها إلى الانتقام كان عظيماً.. الآن فقط عرفت أنها وجدت صعوبة في أن تتركه يرحل.. وتمكنت بنجاح من إخفاء حبها بالكراهية.. أما الازدراء الذي تمكنت من إظهاره فكان ستارة تخبىء وراءها مشاعرها الحقيقية.. وها هي الآن مضطرة لمكافحة رغباتها والحب الرازح في قلبها، الحب الذي يهدد بأن يطغى على كل ما عداه.

دفنت وجهها الحار بين يديها وتأوهت إحباطاً.. كيف ستتمكن من

إخفاء ما تشعر به عن رامزي إن استمر في الإصرار على احتجازها هنا معه؟

كم تتمنى أن يؤخره شيء ما في لندن فلا يستطيع العودة إلى هنا!

* * *

٦ ـ قولي نعم فقط!

بدأت المؤن بالوصول طوال اليوم، وهذا ما قتل كل أمل لها بأن يغيّر رأيه فيسكن في الفندق بدل السكن في «موراييدج»..

أولاً وصلت ثلاجة مليئة باللحوم والخضار المجلدة.. وكان الرجل الذي يقود الفان يعرف كيف يتحرك، فقد سأل عن الطريق إلى غرفة خزن الطعام المجاورة للمطبخ. فيما بعد وصلت صناديق الطعام لتملأ خزانة المطبخ والبراد، تبع ذلك مخزون من صناديق المرطبات والعصير التي تكفي عدة حفلات..

لم تنزعج غالورت حين أخبرتها ايريس ماذا يجري.. وقالت:

ـ يجب أن أغادر الفراش قريباً.. وكم سأستمتع بالعناية بالسيد لونغ.

تمتمت ايريس بكآبة:

ـ سيكون سعيداً وهو يرانا نسعى وراءه.

نظرت إليها غالورت بحدة، وتظاهرت بأنها لم تسمع.

بعد ظهر اليوم التالي وقبل موعد الشاي خرجت ايريس في نزهة طويلة إلى المروج والمستنقعات. أضاف ضباب الخريف والظلام الذي حل باكراً إلى بؤسها بؤساً. ولم يساعدها كذلك حين عادت إلى المنزل أن تجد أن رامزي قد عاد، وكان يتحدث إلى الطبيب.. في لحظة خوف شديد ظنت أن شيئاً حدث لغالورت وهي في الخارج.

ابتسم الطبيب يطمئنها:

ـ لا، لكنني أتيت لزيارة مريضيَّ.. ولا داعي لتقلقي على أي منهما، خاصة وأن السيد لونغ قد استعاد عافيته الآن.

أحست ايريس بخفقات قلبها تزداد عندما نظرت إلى رامزي.. كان الآن مرتدياً ملابسه الحقيقية لا المستعارة، وبدا بالفعل في حالة جيدة.. وقد بدا الطبيب متأثراً به حقاً.

قال الطبيب: «سأرتب أمر حصول غالورت على شهر راحة في دار للنقاهة».

أجفلت ايريس وارتبكت لأنها أدركت ما قد يعني هذا:

ـ أوه؟ أهي مريضة إلى هذا الحد؟

ـ لا.. لكنها منذ فترة وهي على غير ما يرام.. وأعتقد أن ضغط المرض الأخير أخذ منها مأخذه. وما هي بحاجة إليه في الواقع هو بعض التغيير لا شيء غيره.

ـ ولماذا لا نعطيها عطلة قصيرة؟ بإمكاني السفر معها.

هز الطبيب رأسه بسبب اللهفة على وجه ايريس:

ـ لا أعتقد أن هذا حسن لها.. سيدفع رامزي التكاليف وغالورت موافقة، وهي شاكرة له صنيعه.

بعد ذهاب الطبيب نظر رامزي إلى ايريس ببرود، فالواضح أنه لن يتساهل مع سخطها الواضح وقال بفظاظة:

ـ أغراضي فوق.. يمكنك إفراغ حقائبي.. فلا وقت لدي.

إذن ستستمتع غالورت بوقتها وسيستمتع هو بوقته.. وهي وحدها التي ستعاني! قالت تدافع عن نفسها:

ـ سأفكر في الأمر.

صاح بوحشية: «نفذي ما أطلبه منك».

هرعت إلى فوق.. وفيما كانت تفرغ حقائبه أخذت يداها ترتعشان فرغم ادعائه الانشغال جلس على طرف سريره يراقبها.. كان شعورها بالإحباط يتزايد ولكنها حاولت السيطرة عليه.. خاصة وقد أدركت أنه

يعي ما تشعر به.

قال ساخراً: أخبرت الطبيب أنك لن تعملي عنده بعد الآن.

ردت بحدة: «رأيته بنفسي بالأمس».

ـ كان يعرف على أي حال أن عملك عنده مؤقت.

قررت عدم مجادلته.. فثمة وظائف كثيرة، وهي الآن بحاجة إلى وقت للتفكير. تظاهرت بعدم الاكتراث وهزت رأسها موافقة.. وعندما رآها رامزي صامتة سألها بحدة:

ـ هل في غرفة الجلوس نار؟

ـ أجل.

ابتسم: «جيد».

كانت ابتسامته أشبه بتكشيرة نمر.. أحست ايريس بعدم الراحة فلو ارتكبت هفوة واحدة لانقضّ عليها. ورغم هذا الإنذار دفعها اهتياج داخلي لتسأل ساخرة:

ـ هل تريد مني أن أحضر لك الحمام؟

قبل عرضها بسرعة: فكرة جيدة.

وكم تمنت لو كبحت لسانها.. هزت رأسها متمردة، وأسرعت تمر به.

عندما أطلّ من باب المطبخ كانت منشغلة بتحضير عشاء غالورت.

قال بعجرفة:

ـ سأتناول وجبة طعامي في غرفة الطعام.

ما إن أصبحت الساعة العاشرة حتى كانت ايريس مرهقة من الركض جيئة وذهاباً كلما رن رامزي الجرس.. تناول عشاءً جيداً وطلب تسخين الحساء من جديد، وطهو الستيك مرة أخرى.. وتناول قهوته في غرفة الجلوس، وفيما كانت تحضر القهوة انطفأت النار فراح ينظر إليها بعدم مبالاة. وهذا ما جعل دمها يغلي وهي تحمل دلو فحم حجري ثقيل، وكم ودت لو ترمي الفحم كله على رأسه، لكن شجاعتها خانتها..

في العاشرة والنصف قالت:

ـ أنا ذاهبة لأنام. هل تريد شيئاً آخر؟

رد بلؤم: «القليل من أدب التعامل فقط».

وبهذا أوضح لها أنه لن يتحمل سلاطة لسانها.

في غرفتها، نظرت إلى السرير بقلب غائر. ووجدت أن لا خيار أمامها لتستطيع النوم عليه غير حمام ساخن.. جمعت أغراضها وتوجهت إلى الحمام فعليها أن تستحم قبل أن يصعد رامزي لينام ولكنه على ما تظن سيتأخر في الصعود فهو غارق حتى أذنيه بين الأوراق.

كانت مرهقة فغفت في المغطس.. عندما استيقظت كانت المياه باردة، لعنت غباءها وارتدت الروب حتى بدون أن تجفف نفسها، وأسرعت إلى غرفتها. كانت تمر بباب غرفة رامزي حين ظهر منها.. فاصطدما.

سألها بحدة:

ـ هل أنت بحاجة إلى ساعة لتستعدي للنوم؟

شهقت: «لقد غفوت في المغطس».

ارتفع حاجباه سخرية: «حقاً؟»

ـ كن واثقاً أنني لن أخاطر بأن يتكرر هذا ثانية.

ولعقت شفتيها الجافتين فجأة وحاولت الابتعاد عنه.. لا شك أنه في طريقه ليستحم، حذرتها خفقات قلبها المجنونة في الوقت المناسب وأخفضت يداً كانت قد رفعتها إليه عن غير وعي منها: اعذرني.

أمسك يدها بسرعة، وجرها بدون رحمة إليه.

ـ بعد لحظة! هل أنا على حق في اعتقادي أن في ذاكرتك شيئاً؟ هل نسيت حادثة مماثلة وقعت منذ فترة؟ رجل مسكين مرتجف كان يضمك بين ذراعيه ويتقبل بخنوع تأنيبك وازدراءك لأنه تجرأ على ملامستك؟

كان الخجل الذي شعرت به حقيقياً ولكنها لم تشأ الاعتراف فقالت:

ـ أكنت تفضل أن أشجعك؟ لو ضللتك فماذا كان شعورك الآن؟

- الرضى الكامل على ما أتصور.

تزايدت خفقات قلبها لأنها رأت ألسنة نارٍ تشتعل فجأة في عينيه.. كانت الريح تعزف موسيقى من نوع ما في الجو.. حاولت أن تتكلم ولكن صوتها كان يرتجف كسائر أطرافها.. عندما اتسعت عيناها لتنظر إليه، ضاعت في ظلمة عينيه النارية.

عندما عانقها في آخر مرة كان غاضباً إلى حد العنف، وكانت ذراعاه تؤلمانها بشكل وحشي.. والليلة ما زال الغضب موجوداً، إنما ليس بالقوة ذاتها.. ضمها إليه بشدة فزغرد قلبها.. واجتاحتها موجة تهدّد بإغراقها.

تمتم: «ما زلت مبللة».

وأحنى رأسه ليشم شعرها، أما يداه فراحتا تشدانها إليه.

تمتم بوحشية وبغير شفقة: أريدك.

تلاشت من عقلها كل أفكار المقاومة.. مع أن غريزتها حذرتها من الخطر الداهم الذي تتعرض إليه.

حين رفعها ليحملها لم تقاوم وشعرت بالصدمة حين رماها فجأة على السرير وارتدّ مبتعداً أما هي فلم تستطع سوى النظر إليه بدوار..

همست بتوسل: «رامزي».

تجاهل توسلها بوجه صارم: اخلدي إلى النوم ايريس.

حتى ولو لم تكن الدموع تعميها، كان من المستحيل أن ترى ما في عينيه. لم تستطع رؤيته واقفاً وهو ينظر إليها من بعيد، وكأنه يكرهها. كان وجهه الوسيم شاحباً، لكن في الوقت ذاته قاسياً بشكل غريب.

قال بفظاظة:

- الآن عرفت بماذا كنت أحس كلما رفضتني.. عندما، أنا الأبله المسكين، كنت غبياً فتصورت أنني أقع في حبك.

بدا لها أن كل ما تستطيعه هو التفوه باسمه: رامزي!

رفعت نفسها على مرفقها.. وتلاشت كرامتها وهي تئن:

- أعرف أنني وقعت في حبك.. أنا.. أعتقد أنني حاولت أن

أؤلمك.. لكنني مستعدة أن أجثو على ركبتي لأطلب منك السماح. لقد قلت لك إنني آسفة.

قال ساخراً:

- سمعت الاعتذار ولا أبحث عن المزيد من الندم. أنا غير مهتم بمشاعرك ايريس.. لكن لو كنت مكانك لما قلقت كثيراً.. ستشعرين بأنك أفضل حالاً في الصباح.

قال كلمته ثم صفق الباب وراءه، أما هي فبقيت مستلقية جامدة، كانت تأمل أن تشعر فعلاً بأنها أفضل حالاً في الصباح.. ولكنها الآن معذبة يستحوذ عليها الشعور بالخزي.

لما انبزغ الفجر، دهشت ايريس لأنها اكتشفت أن في نصيحة رامزي شيء من الحقيقة.. لم يعد هناك شيء مهم جداً.. وأحست بخدر جميل.

مع ذلك لم يمنع هذا قلبها من الخفقان عندما حملت فطوره إلى غرفة الطعام.. وما منع الإحباط المؤلم الذي جاش في صدرها بسبب رؤية وجهه البارد كالطقس في الخارج.. رفع رأسه بسرعة عن كومة الأوراق التي ما يزال مستغرقاً فيها، وطلب أن تصب له قهوته..

قال بقسوة غير عابىء بشحوبها.

- هذا كله نتيجة ابتعادي عن العمل فترة طويلة. سأطلب أن تأتي سكرتيرة لتساعدني.. ففي البداية يمكنها ترتيب هذه الأكوام من الأوراق.. لكنها ستحتاج إلى الغذاء.

كادت ايريس تعرض عليه المساعدة، لكنها تمكنت من منع نفسها في الوقت المناسب.. فلديها ما يكفي من عمل ولا تعرف كيف تبدأ.. ثم ألم تكتف من صياحه وسخريته منها ما يكفيها العمر كله؟

مع ذلك فقد انخلع قلبها من مكانه.. ربما شعرت بالغيرة عندما دخلت بعد ساعة من الزمن فتاة شديدة الجاذبية، نظرت الآنسة باور باستغراب إلى ايريس التي اقتادتها إلى رامزي الذي كان قد ملأ طاولة

الطعام بالأوراق. رفع رأسه وحيا الآنسة باور بنفاد صبر.. حين عادت ايريس بالقهوة وجدتهما مستغرقين في العمل.

ابتسم رامزي: أوه.. ايريس.. أنا وباتسي سنتناول غداءنا هنا لئلا نتوقف عن العمل، وسيكفينا فنجان شاي قبل أن تعود إلى الفندق.

استولى عليها غضب شديد فهو يعاملها أمام الآخرين بتأدب ولياقة أما عندما تكون بمفردها فتتحمل الأمرين منه.

أحست بالراحة لأنه مشغول مع الآنسة باور.. وازدادت راحتها حين خرج معها بعد احتساء الشاي ولم يعد إلا بعد منتصف الليل. وكان هذا هو الروتين الذي اتبعه في الأيام التالية.. كان يعمل مع الآنسة في الصباح وبعد الظهر في «مورايدج» ثم يمضي الأمسيات مع فريق عمله في الفندق.. ولأن مزاجه بقي على حاله حمدت الله لأنه يخرج من المنزل ولو لبضع ساعات.

لكنها كانت تشتاق إليه بشكل لا يطاق.. مكنها دوام انشغالها بالطبخ وبتحضير ملابس غالورت التي ستقيم في بيت النقاهة، من تجاهل العذاب الحقيقي الذي قد تعانيه حين يذهب رامزي إلى الأبد.

قالت تذكره ذات صباح وهي تحمل له فطوره:

ـ غالورت راحلة بعد غد.

رد بصوت عادي: «أجل.. يوم الجمعة.. وماذا في الأمر؟»

سحبت نفساً عميقاً: «لا يمكننا البقاء هنا بمفردنا».

رفع حاجبيه ساخراً:

ـ حقاً؟ ما من أحد سيضرنا بشيء.

تورد وجهها لكنها تمكنت من السيطرة على ثورة غضبها:

ـ بإمكانك الاستمتاع بالمرح على حسابي رامزي.. لكنني لن أقبل.. أنت تعاملني وكأنني أقل قيمة من التراب، وربما أستحق هذا، لكنني لن أبقى معك بمفردي.

ارتفع حاجباه مرة أخرى:

ـ وماذا تقترحين إذن؟ هل أطلب من الآنسة باور الانتقال للإقامة هنا؟

لا شك أنها كانت عمياء لأنها لم تلاحظ نظرات الوله التي كانت باتسي باور تمطر رامزي بها..

ردت بحدة:

ـ لا أظنها فكرة صائبة.. فلا شك أن هذا سيكلفك كثيراً.

ابتسم بمكر: قد يكون هناك طريقة أسوأ من هذه بكثير لإنفاق مالي.

اندفعت ايريس لإظهار ما تبقى لها من وقار بأن ضربت الأرض بقدمها وصاحت برد متسرع قبل أن يلاحظ دموعها المهزومة:

ـ لا تقل إنني لم أحذرك.

صباح الجمعة، وفي الحادية عشرة، وصل التاكسي ليقلّ غالورت، وكان معه صديقة لها من القرية لترافقها في رحلتها.. أرادت ايريس أن ترافقها بنفسها، وأحست بشيء من الألم لأنها لم تتمكن من هذا.

قالت غالورت تشرح لها:

ـ لقد عرفت سيلا طوال حياتي، ولكنني سأكون مغتبطة برؤيتك والسيد.. رامزي في أي وقت كان.. بعد..

عبست ايريس بحدة: «ماذا؟»

وانتظرت حتى تنهي غالورت جملتها، لأن الكلمات لا تنقصها عادة.. وأكملت غالورت بسرعة وهي تصعد التاكسي:

ـ أعني.. متى كان لديكما وقت فراغ.

ـ بالطبع سآتي فحالما تستقرين هناك سأزورك.

ولم تشمل رامزي في وعدها ثم قبلتها مودعة وأردفت: اهتمي بصحتك.

لوحت لها ثم راحت تبحث عن أفضل طريقة للخروج من الموقف المخيف الذي خلفته غالورت وراءها.. حين استدارت وجدت رامزي يراقبها بشكل غامض.

سألته عن غير اكتراث:

ـ ألم تصل الآنسة باور؟

ـ لن تأتي اليوم.

ـ أوه.

تمتم: «ولن تأتي بعد اليوم، إذ لا أريد منها أن تتطفل على شهر عسلي».

ـ شهر.. عسلك!

نظر إلى وجهها الأبيض شحوباً:

ـ لا تظهري مثل هذه الصدمة.. يحق للرجل شعر عسل بعدما يتزوج ولكنني حتى أنهي فيلمي لن أتمكن من السفر، لذلك فكرت في هذا المكان.. إنه مكان جيد كغيره.

أحست بالسقم والصدمة بدرجة لا تصدق أنها قد تشعر بمثلهما: هكذا إذن!

نظرت إليه مشدوهة، والبؤس في عينيها: إذن هذا ما كان يفعله في لندن؟ لا شك أنه قابل فتاة هناك وأحبها.. جعلها الألم ترتجف وهي تهمس:

ـ لم تذكر شيئاً من هذا قبل الآن.

فجأة تحول وجهه إلى خطوط سوداء منهكة، وسقط عنه عدم اكتراثه وكأنه ستارة أسدلت.

ـ لا.. لم أذكر شيئاً. فلندخل محبوبتي.. أعتقد أن لدي بعض التفسيرات التي أقدمها لك.

بعدما أقفل الباب بحذر خلفهما وأدخلها إلى غرفة الجلوس وعت ما قاله.. وسألت بأنفاس مقطوعة:

ـ لديك بعض التفسيرات؟

رد بصوت مخنوق على غير عادته: «أجل».

وارتدّ يمسك كتفيها بطريقة توحي بأنه لا يريد أن يتركها أبداً.. كانت عيناه شديدتي الاسوداد مفعمتين بشعلات نارية تهدد بالوثوب منهما

لتحرقها.. حاولت أن تجد شيئاً لإراحة عذابه الظاهر ولكنها وجدت نفسها غير قادرة على الكلام.. ولو استطاعت فهي تشك أن يسمعها.. كل احتقاره البارد تلاشى، وهي تحبه حباً لا تستطيع معه أن تتحمل رؤيته يحترق عذاباً.

أخيراً تمكنت من طرح سؤال:

ـ ما الذي تريد أن تقوله؟

رد بصوت أجش: «حبي! إنني أحاول أن أشرح لك أنك أنت الفتاة التي أريد أن أتزوجها.. لا.. أنت الفتاة التي سأتزوجها في وقت ما من بعد ظهر اليوم.. وفي «ايكستر» بالتحديد.. عندما ذهبت إلى لندن في الأسبوع الماضي قصدت ايكستر وقمت بالترتيبات اللازمة.. قد تلعنينني لأنني كنت مستبداً.. ولكنني لم أكن أعتقد أن هناك طريقة أخرى».

قفز قلبها إلى حلقها وراح يخفق بشدة.. واتسعت عيناها بذهول وهي تنظر إليه.. ثم شهقت:

ـ لكنك تكرهني! لا تستطيع مسامحتي على ما فعلته لك.

تأوه وكأنه لا يطيق ذهولها ثم شدها إليه، يضع وجهها المغرورق بالدموع على كتفه، وأخذ يواسيها:

ـ حاولت أن أكرهك حبيبتي.. ولكنني لم أستطع.. أحبك وأريد الزواج بك.. هيا ليس لدينا وقت.

همست: «كنت واثقاً جداً مني!»

ـ الشيء الوحيد الذي كنت واثقاً منه هو ردات فعلنا نحو بعضنا بعضاً.. ولا شك أنك أحسست بقوة تلك الجاذبية التي بيننا.. لقد حاولت تجاهلها ولكنني لم أستطع الادعاء بأنها غير موجودة. حتى عندما غبت عنك لم أستطع أن أنسى رقتك ونعومتك.. حاجتي الدائمة إلى رؤيتك كانت كالألم الجسدي. لم أستطع تحمل البعاد عنك.. أحسست أني أتجه ببطء إلى حافة الجنون وبت غير قادر على فعل شيء حول الأمر.

ابتلعت ريقها قبل أن يتمكن الشوق المنطلق من عقاله من إخفاء

مشاعرها الحقيقية:

ـ أوه.. حبيبي!

مدت يديها إلى وجهه تهمس بكلمات الحب له.

ملس شعرها السميك عن خديها المتوردين:

ـ لم تقولي «نعم».

تمكنت من الابتسام وضاعت في عمق عينيه.

ـ أنت لم تسألني.. لقد قلت لي فقط.

بدا أن لا رغبة عنده ليرد لها الابتسامة.. إذ جمدت يده التي كانت تداعب وجهها:

ـ حسناً.. إنني أسألك الآن.

غضّنت تقطيبة خفيفة جبينها الأملس:

ـ لقد أقسمت ألا أتزوج رجلاً مثلك.

صاح: «لماذا؟»

ـ للأسباب المعتادة.. تقع طلاقات كثيرة في مهنة التمثيل، وتحدث خيانات زوجية كثيرة أيضاً.

قال ممازحاً:

ـ لم أكن أدرك أنك تعرفين معنى هذه الكلمة.

أجابت ساخطة: «لست طفلة رامزي».

ـ لا.. وأعتقد أنك تشعرين بهذا بسبب أبويك. لكن عندما تفكرين في الضغوط فقد يصبح الأمر مفهوماً.. إن العديد من الناس في مهنتي عاشوا ويعيشون حياة زوجية مستقرة عمرها طويل.. وما عليك سوى النظر إلى ما حولك جيداً.

صدمتها فكرة مفاجئة جعلتها ترتجف.. ورفعت عينيها بتردد إلى وجهه وهمست:

ـ قلت لي مرة إنك كنت متزوجاً وإن زوجتك ماتت.. لكن قد تكون طلقتها؟ أنا لا أريد أن أتطفل على ماضيك حبيبي.

هز رأسه: «أنت لا تتطفلين.. ما كنت لأتزوجك بدون أن أخبرك كل شيء.. لكنني ظننتك تعرفين».

ـ لا أعرف سوى ما قلته لي.

قال ببطء: «ليس لدي الكثير لأطلعك عليه.. إنها فتاة من قريتي وكنت في الرابعة والعشرين حين اكتشفت وجودها في لندن قبل إحدى عشرة سنة.. كانت مريضة ومعوزة.. فقد مات والداها وكانت بمفردها تعاني من مرض نادر.. كانت بحاجة إلى من يرعاها لكنني حتى اليوم لا أعرف لماذا تزوجتها.. فوالداي ثريان وطالما حجبا عني خشونة وقائع الحياة، وأظن أنني كرهت ذلك.. حين التقيت بتلك الفتاة كنت أكافح للابتعاد عن والديّ.. وأعتقد أنني وجدت في زواجي بها نصراً آخر ضد السلطة الأبوية، أو ربما تصورت نفسي فارساً عصرياً ينقذ آنسة شقراء من الخطر المحدق بها».

صمت قليلاً، وازداد عمق صوته:

ـ لم تعش سوى ستة أشهر بعد زواجنا وقد قضت معظم الوقت في المستشفى حيث ماتت.. ما من أحد كان قادراً على إنقاذها.

ـ وهل حزنت عليها كثيراً؟

رد بحزم: «لا.. ما من أحد قد يحزن على انتهاء ذلك العذاب الذي كانت تعاني منه، لكنني ندمت».

ـ أي نوع من الندم؟

مرة أخرى أحست أنه يحاول أن يكون صادقاً:

ـ لست واثقاً.. كلما فكرت في المسألة أتساءل ماذا استفادت هي منها، ولا أفكر في نفسي.. تلك الأشهر الستة ساعدتني على النضوج وجعلتني أدرك كم من الضروري وجود مشاعر حقيقية قبل الدخول إلى لقفص الذهبي.. فلو عاشت لعشنا حياة خالية من الحب.

نظرت إليه بمحبة لم تحاول إخفاءها.. ورفعت يدها إلى خده:

ـ كان ذلك شيئاً رائعاً تفعله، وأنا واثقة أنك كنت ستجد الشجاعة

للاستمرار.

- إنني غير واثق.. لكن التجربة جعلتني مصمماً على عدم الزواج بفتاة أخرى إلا إذا كنت أعني هذا حقاً. ولم أفكر قطّ أن ذلك اليوم آتٍ حتى رأيتك.

- ألم.. تتزوج مرة أخرى؟

هز رأسه والبريق في عينيه:

- لا، لكن هذا لا يعني أنني عشت حياة ناسك. غير أنني أستطيع أن أقول إنني لم أنظر إلى امرأة غيرك منذ التقيتك.. وحتى عندما كنت أحاول كنت أجد أنهن لا يحركن شيئاً فيّ ولم أكن أرى أمامي سوى عينين زرقاوين جميلتين.

أدركت ايريس أن زواجه الأول كان محنة أكثر مما أوحى به ووجدت أن من الحكمة تغيير دفّة الحديث فمازحته بلطف:

- أنا دهشة لأنك فكرت فيّ مرة أخرى، إذ لم يكن لقاؤنا مكللاً بالنجاح منذ اللحظة الأولى.

أجاب بسخرية:

- وأنا كذلك عزيزتي.. فلم ينكسر معصمي فقط بل عانى قلبي أيضاً من ضرر كبير.. ولا أدري حتى الآن لماذا أمسكتك وعانقتك كما فعلت.. لقد كدرت لي حياتي كثيراً بحيث عزوت هذا لفترة طويلة إلى عمل شيطاني.

اتسعت بسمتها: «حقاً؟ وهذا ما شعرت به أيضاً ولكنني لم أفهم ما يحدث أكثر منك».

تأوه: ما دمت تفهمين الآن فذاك غير مهم.. أوه حبيبتي!

أكمل يهمس: «حاولت جاهداً أن أنساك، أن أخرجك من عقلي وفكري لكنني فشلت. لماذا تظنين أنني أتيت إلى حفلة غرايس لو لم أكن آمل أن ألقاك هناك مرة أخرى؟ كان لدي فكرة غامضة عن أنني سأجدك هناك.. ثم دفعتني إلى الغضب بعدم استعدادك للاعتراف بأنك رأيتني من

قبل. صحبتك إلى شقتي لأنني كنت مصمماً على إيجاد الحقيقة، وعندما عانقتك هناك عرفت أنني لا أحتاج إلى المزيد من البحث عن دليل.. وقلت لنفسي يجب أن أحصل عليك مهما كلّفني الأمر».

صمت وكأنه يجد صعوبة في متابعة حديثه:

- أجل.. أنت تستحقين المعاناة! ولأنك لم تكوني ودودة معي في لندن وجدت أنك بحاجة إلى وقت وكنت مخطئاً في ذلك ثم عرضت عليك عملاً على أمل أن يتيح لنا ذلك فرصة البقاء معاً ولكنك رفضت وليتك تعرفين كم أشعرني رفضك بالإحباط. كنت ما زلت غير قادر على التصديق بأنك لا تريدين شيئاً له علاقة بي.. فكان أن حاولت ابتزازك بموضوع غرايس ثم دعوتكما إلى لايتون لأنهي المسألة.

ذكرته مؤنبة:

- حاولت كذلك رشوتي بمعطف من الفراء وكم كرهت منك هذا.

- كنت يائساً وعلى عجلة من أمري.

اشتدت يداه حولها وقست عيناه بما يشبه الغضب:

- كيف تجرؤين على ذكر هذا وأنا أذكر جيداً ما كنت تقولينه لذاك الرجل وأنت تخابرينه هاتفياً؟.. كنت تعدين نفسك لرجل آخر.. فكدت أجن! وقلت لنفسي يجب أن أكون الأول.

شهقت مقطوعة الأنفاس:

- أوه.. رامزي.. كان ذلك كلاري الكاتب الذي أعمل عنده؟ كان عليّ أن أنجز له عملاً قبل أن أذهب إلى لايتون.. ووعدته بالبقاء ليلاً لأنهي له طباعة كتابه.. على أي حال لديه مدبرة منزل تقيم في منزله وتراقبه كالصقر.. في الواقع لم يتصل بي منذ خابرته في ذلك اليوم، فهو مسافر.

- أوه.. يا إلهي! ليتني عرفت! ذُقت الأمرين وأنا أغويك لأنني تصورت أنك ستقيمين علاقة معه لذا حاولت أن أقنعك بمرافقتي إلى أميركا.. وكنت أظن أنك هناك ستكونين آمنة منه، لكن حين فشلت

جميع محاولاتي في إقناعك، لم أعد أعرف ماذا أفعل.. كنت سأطلب يدك ولكنني لم أكن أظنك تحبينني، ولم أستطع مواجهة رفضك.. ورغم كل ذلك أردت الحصول عليك.

همست بأنفاس متحشرجة:

ـ لكنك لم تفعل.

ـ اكتشفت في آخر لحظة أنني لا أستطيع معاملتك بتلك الطريقة.. وقررت أن تشاركيني عذابي فكان أن كتبت لك الرسالة.

ـ حين قرأتها ذُقت الأمرين أيضاً. خلتك طردتني من بيتك وحياتك.

توسل بصوت مثقل بالندم:

ـ حبيبتي، لا تحزني هكذا! لم يكن قد مضى على وجودي في أمريكا أكثر من خمس دقائق حين عرفت أنني لن أستطيع العيش بدونك.. أردتك زوجة لي لأرعاك وأدللك ولأحبك بكل وسيلة ممكنة. أوقفت كل أعمالي وقلت لشقيقتي وزوجها إنني سأتزوجك، وإننا سنغيب بضعة أسابيع في شهر عسل. لكنني طلبت منهما كتمان الأمر لأنني لم أكن واثقاً منك.. وأنت حتى الآن لم توافقي.

ـ وهل ستتركني أرفض.. إذن لهذا لم يفتقدك أحد؟

ـ أعتقد هذا، لقد قمت بكافة الترتيبات، وكنت في طريقي إلى هنا وترخيص الزواج في جيبي، مع أشياء أخرى.. لهذا سألت عن سترتي.. ففي أحد جيوبها كنت أحمل خاتمين جميلين.

ـ أوه رامزي! ليتني عرفت! ظننت أنك.. نبذتني.. وأن حياتي انتهت.. اعتقدت أنك هنا لدراسة الريف من أجل الفيلم فقط.. ولم أكن أتصور أنك ستستعيد ذاكرتك بسرعة.. لكن مع مرور الوقت بدأت أخاف.. فبسبب حبي الكبير لك بت لا أعرف ماذا أفعل.. كان يجب أن أخبرك بهويتك لا أن أتركك تتذكر بنفسك كما حصل.. حين غضبت عرفت أنني أستحق.. ولكنني كنت يائسة.

وكأنما ذكرى ذلك اليوم تعذبه، تمتم:

ـ حبيبتي، لا تذكري هذا.. لقد كانت تجربة غريبة، فقد عاد كل شيء إلى ذاكرتي فجأة وبدون سابق إنذار.. توالت الذكرى وراء الذكرى بدون ترتيب.. ولقد لزمني وقت طويل لأستعيد توازني. حين نادتني غرايس باسمي شعرت بأن سد ماء ضخم انفجر في رأسي.. فكان كل ما استطعت فهمه في ذاك الوقت هو أنك كنت تعرفين من أنا ومع ذلك لم تقولي.. تركتني أعاني وأعاني وكان ذلك دليلاً على كرهك لي، لا على حبك.. ولقد شعرت فعلاً بالمرارة بسبب هذا فعاملتك بوحشية.

أطرقت ايريس رأسها لتدعه يعرف أنها تقبلت هذا التفسير لكن عينيها اغرورقتا بدموع مؤلمة:

ـ ولمَّا عاملتني بتلك الوحشية، ظننتك تكرهني!

رد بشدة: «كنت مضطراً للتظاهر.. وكنت بحاجة إلى وقت لاستحضار ترخيص زواج جديد، ولإجراء ترتيبات أخرى ضرورية.. ولم أكن واثقاً حتى تلك الليلة من أنك مهتمة بي، مع ذلك لم يحسن ذلك طباعي».

أحست بأنها تكاد تختنق بشوق عظيم.. وهمست:

ـ لقد أحببتك ردحاً طويلاً.

وتعلقت به بلهفة.. فرد بمكر:

ـ لن نخبىء هذا الحب بعد الآن.. لقد كافحنا كفاحاً قاسياً في الأيام الماضية.. على أي حال.. لقد رتبت أمر كل شيء بحيث ننفرد بأنفسنا أسبوعاً على الأقل هنا، وذلك قبل أن أضطر إلى البدء بالعمل.. وبعدما أنهي هذا الفيلم، سيكون لنا شهر عسل محترم، ثم نستقر في لايتون حيث آمل أن أكتب وأن أربي أولادي.. بمساعدتك.

أثَّر تسارع الحرارة في نبضاتها بسرعة على وجهها، الأمر الذي حاولت إخفاءه عنه.

ـ وماذا سيظن فريق العمل في الفيلم حين يعلمون أنك ستتزوج؟

أحست بابتسامته القلقة على قمة رأسها:

ـ لا أظن أن أحداً منهم سيستغرب زواجنا خاصة بعد تلك الطريقة التي كنت أنظر فيها إليك تلك الليلة في الفندق.. أو بعدما رأوا ردة فعلي حين اكتشفت أنك اختفيت مع السيد براند.. وستجدين أنهم جميعاً سعداء لوجود من روضني آخيراً.. على فكرة، حبيبتي، لقد زففت النبأ إلى أبيك وقد نقول إلى أمك فيما بعد.

ولأن لا حاجة إلى المزيد من الأحاديث شدت رأسه إليها.. للحظات، اشتدت ذراعاه حولها وكأنه على استعداد لنسيان كل شيء.

ثم وجدت أنها تقف فجأة على قدميها.. فلمّا نظرت إليه بذهول قال:

ـ هل نسيت أننا سنتزوج بعد ساعة أيتها السيدة الشابة؟ فأنت حتى الآن لم تضعي ماكياجك!

أخفت ابتسامته القليل من شوقه المشتعل في عينيه..

أردف: إنني أقوم بما في وسعي لأجعل منك امرأة شريفة، لكنك لا تساعدينني..

عندما تلاقت عيونهما أحست ايريس بكل كيانها يذوب في وهج الترقب.

ـ أوه.. رامزي! لن أتأخر عن الزواج بك ولو ملكت العالم كله.. ولن أبادلك به.. أحبك.

ـ شرط أن تستمري في قول هذا بعد خمسين سنة.

وأمسك يدها وصعدا معاً ليستعدا لحفلة الزفاف.

***